د. نَبيل فَارُوقْ

شمس منتصف الليل

رواية

MIDNIGHT SUN

دار دوّن


mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

إلى مِصر الثورة

الفصل الأول

ارتفعت رايةٌ سوداءُ، على قمة أعلى أبراج مبنى السجن، معلنةً عن أحد تلك الأيام، التي يتمُّ فيها تنفيذ أحكام الإعدام النهائية، وتشاركت الأحوال الجوية مع الموقف؛ فاكفهرَّت السماء، وتلبَّدَت بالسُّحبِ، وبدا وكأنها توشك أن تُمطِر.. بدموعٍ آسفةٍ..

وعبر ممرات السجن الكئيبة، التي تفوق ظُلْمتها ذلك الضوء الباهت فيها، والممتزج بقليل من الضوء، الذي يتسلل من نوافذ قليلةٍ، تَحوُلُ قضبان فولاذية، بينها وبين العالم الخارجيِّ، باتساعه وامتداده..

وفى صمتٍ مَهيبٍ، سار ذلك الموكب الصغير..

موكب يقوده مأمور السجن، وخلفه عددٌ من ضباطه وجنوده، بينهم يسير في صعوبةٍ «طارق بشير»، المتهم بقتل شخصٍ عاديٍّ، لم تكن تجمعه به أيَّةُ صلةٍ واضحةٍ، وفقًا لتحريات إدارة البحث الجنائي، والذي لم يتم العثور على جثته قَطّ، وإن أكَّدَت كل الأدلة أنه لم يكن باستطاعة أحدٍ القضاء عليه، سوى «طارق».. و»طارق» وحدَهُ..

كان واعظُ السجن يسير إلى جواره، ويتحدَّث إليه بكلماتٍ هادئةٍ، مُحاوِلاً أن يستحثه على أن يعترف بجريمته، ويستغفر الخالق عزَّ وجلَّ عمَّا حدثَ، إلا أنَّ «طارق» كان يبدو شاردًا، وكأنه لا يسمعه، وعيناه مُعلَّقتان بنقطةٍ مجهولةٍ، لا يدري سواه ماذا يرى عندها..

وفي تلك الحجرة الرهيبة المخيفة؛ حيث يقف شخصٌ ضخمُ الجثة، كثُّ الشارب، إلى جوار حبل المشنقة، الذي يتدلَّى من قائمٍ خشبيٍّ غليظٍ، وأسفله مباشرةً منصة خشبية، يتوسطها مستطيلٌ واضحٌ، مُعَدٌّ بحيث ينفتح فجأةً، إثر دفعه من يدِ ذلك الضخم، لذراعٍ خشبيةٍ مائلةٍ إلى جواره..

وفى آليَّةٍ، قرأ مأمور السجن حُكمَ الإعدام النهائيِّ، الذي صدرَ ضد «طارق»، والذي ينتهي بتلك العبارة المخيفة:

«الإعدام شنقًا»..

لم يَبدُ على «طارق» أنه قد سمع حرفًا واحدًا مما يقرأه مأمور السجن، وهو يتطلَّع في اضطرابٍ إلى ذلك الحبل الغليظ الذي سيسلبه الروح بعد قليلٍ..

وعلى الرغم منه، استعاد ذهنه عدة ذكرياتٍ مُتفرِّقةٍ..

ذكرياتٌ بدأت بتلك الليلة، التي كان يجلس فيها وحدَهُ، مستمتعًا بالهواء المنعش، في شرفة منزله الصغير الجديد، يتجرَّع زجاجةَ مياه غازية مثلَّجةً، ويتأمَّل النجوم، التي يَندُر أو يستحيلُ أن ترصدها في المدن الكبيرة.

كان ذلك المنزل في بقعةٍ شبه منعزلةٍ عن تلك المدينة الجديدة، التي لم تُعمَّر بالسكان بَعْدُ، وكان يشعر بارتياحٍ شديدٍ، عندما يقضي فيه يوميَّ إجازته الأسبوعية، بعد العمل الشاق والمستمر، طوال الأيام الخمسةَ الأخرى المرهِقة.

كان مبعَث ارتياحه، إلى جانب الهدوء الشديد، هو بُعده عن كل وسائل التكنولوجيا الحديثة خلال يوميّ إجازته..

وهذا ما حَرِصَ عليه تمامًا..

لم يُضِفْ إلى منزل المدينة الجديدة جهازَ تلفاز، أو هاتفًا، أو شبكة إنترنت.. أو حتى مُبرِّدَ مياهٍ..

شعوره بالارتياح كان يكتمل، وهو يحيا حياةً طبيعيَّةً، بدائيَّةً، تعيده إلى أحضان الطبيعة الأم، بكل بساطتها وعفويتها..

أغمض عينيه في استمتاعٍ، وهو يستنشق هواءَ الليل الرطب، و..
وفجأةً، تَفجَّر ذلك الضوء أمام عينيه..
كان يغلق عينيه فعليًا، إلا أن ذلك الضوء المباغت كان قويًا، شديدَ الإبهار، حتى إنه اخترق جفنيه الـمُغلقَين، وكاد يَحرق مقلتيه دفعةً واحدةً..
انتفض جسده في عنفٍ، ولكنه عجز عن فتح عينيه..
أو إنه قد خشيَ ذلك تمامًا..
لقد كان الضوءُ ساطعًا، مبهرًا، شديدَ القوة، حتى إنه تصوَّرَ أنه، لو فتح عينيه، فستشتعلان على الفور، وكأنهما تحدقان في الشمس مباشرةً.. وعلى الرغم منه.. صرخَ..
انطلقت منه الصرخة عفويًا، وجسده ينتفض..
وينتفض..
وينتفض..
لقد بدا له، على الرغم من ذهوله، وكأن الشمس قد خرجت من مسارها فجأةً، وهوت أمام عينيه مباشرةً..
وفي منتصف الليل..
رفع ذراعيه، في محاولةٍ لحماية وجهه وعينيه، وشعر بصفيرٍ رهيبٍ، لم تدركه أذناه، بقدر ما أدركه مخه..
كان يخترق مُخَّه مباشرةً، كما لو أنه لا يمر عبرَ أذنيه..
ولهذا صرخ مرة أخرى..
وصرخ..
وصرخ..
وقبل حتى أن تنتهي صرختُه الأخيرة، انتهى كل شيء بغتةً..
تمامًا كما بدأ..
ولوهلةٍ، لم يستوعب عقلُه ذلك الانقلابَ المفاجئ..
ثم، وفجأةً أيضًا، انتفض جسدُه مرةً ثانيةً في عنفٍ..
ولثوانٍ، تواصَلَ شعوره بالخوف من فتح عينيه، ثم لم يلبث أن فتحهما في بطءٍ وحذَرٍ، قبل أن يتسعا عن آخرهما، وهما تحدقان أمامهما في ذهولٍ..
لقد كان كل شيء هادئًا..
للغاية..
ومرة أخرى، ومع وقْع المفاجأة، عاد جسدُه ينتفض، وشعرَ بجفافٍ شديدٍ في حلقه، ومرارةٍ جعلته يرغَب، وبشدةٍ، في تناوُلِ بضع رشفاتٍ، من زجاجة المياه الغازية المثلَّجة، التي أحضرها إلى الشرفة، فمدَّ يدَه إليها، و..
مرةً أخرى، انتفض جسده..
وهذه المرة، كانت الانتفاضة أعنفَ..
وأقوى..
فالزجاجة، التي تناول منها رشفةً مُثلَّجةً، منذ دقيقتين، لم تكن مثلَّجةً..
بل لم تكن حتى باردةً..
كانت، على العكسِ تمامًا، دافئةً، وكأنها هناك منذ ساعةٍ على الأقل..

نظرَ إليها في ذعرٍ، وحدَّق فيها في ذهولٍ، ثم لم يلبث أن نقلَ بصره في سرعةٍ إلى ساعة يده..
كانت العقارب تُشيرُ إلى الواحدة وتسع دقائق، من بدايات يومٍ جديدٍ..
وهذا جعل عينيه تتسعان أكثر، وذهوله يقفز مائةَ درجةٍ إلى أعلى..
فهذا مستحيل..!
مستحيل تمامًا..!
إنه يخرج دومًا إلى الشُّرفة، قبيل منتصف الليل بدقائق قليلة..
وهذا ما فعله في هذه الليلة..
ولم يمض على جلوسه وقتٌ قليلٌ حتى سطعت تلك الشمس العجيبة..
ولم يستغرق سطوعُها دقيقةً أو يَزيدُ..
فكيف مضى ما يَزيدُ عن الساعة؟!
كيف؟!
كيف؟!
كانت ذاكرته تستعد للانتقال إلى نقطةٍ أخرى، عندما مسَّ المأمُورُ كَتِفَه، وهو يقولُ في صوتٍ خافتٍ مُشفِقٍ:
- ألك مَطلبٌ أخيرٌ؟!
استعاد جسده انتفاضته، وهو يلتفت إليه في بطءٍ، مُغمغِمًا في صوتٍ مُتحشرجٍ:
- كلَّا.
سأله الواعِظُ في حنانٍ أبويٍّ:
- هل ستعلن توبتك؟!
صمت «طارق» لحظةً، غمغم بعدها في خفوتٍ:
- أنا بريءٌ.
ربَّت المأمور على كتفه مرةً أخرى، ثم أشار إلى مُنفِّذ الإعدام، الذي أمسك ذراع «طارق»، في خشونةٍ غير متعمَّدةٍ، وبدأ يقيِّد معصميه خلف ظهره، ثم انحنى يربط كاحليه في إحكامٍ..
وعلى الرغم من حساسية الموقف، بالنسبة لشخصٍ يواجه الموتَ، عادت ذاكرته تنطلق مرة أخرى

ذلك الحادث لم يتكَّرر مرةً ثانية بعدها..
وذكراه لم تفارقه قَطٌّ..
كُلُّ ما خطرَ بباله، أو حاول إقناع نفسه به، هو أن كل هذا لم يكن حقيقةً عاشها، بل مجرَّد حُلمٍ..
كابوس يقظة، راوده في لحظة نُعاسٍ..
من المؤكَّد أنه كذلك..
فما حدثَ ليس أمرًا مفهومًا..
بل، وليس حتى ظاهرةً طبيعيَّةً..
إنه أمرٌ خارقٌ للمعتادِ..
أمرٌ يستحيلُ حدوثُه في عالَمِ الواقِعِ..
بذلَ جَهدًا خرافيًا لإقناع نفسه بهذا، وكاد ينجح في محاولته بالفعل..
لولا ما حدثَ في ذلك اليوم..

انتزعه من ذكرياته ذلك الظلام، الذي أحاط بعينيه فجأةً، عندما وضعَ منفِّذُ الحكمِ، ذلك الكيس الأسود على رأسه، وحتى عنقه..
ومرةً أخرى، راح المأمور يتلو الحكم، وامتدت يدُ منفِّذ الحكم تقبض على تلك الذراع الخشبية، في تحفُّزٍ واستعدادٍ، مُنتظِرًا إشارةَ المأمور للتنفيذ..
وهنا توقفت ذكريات «طارق» تمامًا..
وخلا رأسه من كل شيء، إلا من أمرٍ واحدٍ..
إنه يواجه لحظة إعدامه، ويحيا آخِر لحظات حياته، وها هو ذا حبل المشنقة، يلتف حولَ عنقه..
وفي أعمق أعماقه، صرخَ:
- أنا بريء.
وقبل أن تكتمل تلك الصرخة في أعماقه، انتهى المأمور من تلاوة الحكم، وأشار إلى منفِّذ الإعدام...
وبلا تردُّدٍ، جذب الرجل تلك الذراع في قوةٍ وحسمٍ.
وانفتحت الكوة المستطيلة، تحت قدميه تمامًا..
وهوى جسده...
و..
وارتدَّ الحبل في عنفٍ..
وفي هذه المرة، كان دور الحاضرين جميعًا، لتتسع عيونهمافي ذهولٍ..
فعندما ارتدَّ الحبل، كان خاليًا..
ولم يكن هناك أدنى أثرٍ لـ «طارق»..
أدنى أثرٍ.

* * *

الفصل الثاني

انحنى «جمال فتحي»، مدير مباحث العاصمة، يتطلَّع في إمعان إلى تلك الفجوة التي اختفى داخلها «طارق»، وتفحَّص جدرانها في توتُّرٍ، وهو يقاوم تلك القشعريرة الباردة، التي تسري في جسده؛ لمجرَّد وجوده داخل ذلك المكان الذي شهِدَ من الموت أضعاف ما شهده من الحياة، ولقد حاول بقدر استطاعته كتمان تلك القشعريرة في أعماقه، إلا أنها خدعته، وفرَّت عبرَ صوته، وهو يغمغم:
- لا بُدَّ من فحصِ هذه الجدران جيدًا.
أجابه «فارس حمدي» خبير المعمل الجنائي، وهو يتلفَّت حولَه في توتر، ويتمنى من أعمق أعماق قلبه أن يعدو خارجًا من حجرة الموت، قبل أن يختطفه غِيلةً:
- لقد استدعيتُ أحد خبراء الهندسة المدنية؛ ليتأكَّد من عدم وجود فتحاتٍ أو مخارج سِريَّةٍ بها.
بدا مأمور السجن شديد العصبية، وهو يقول:
- حفرة الموت هذه لها مدخلٌ واحدٌ، ولا توجد بها أيَّة مخارج سرية، وحتى لو كانت تلك المخارج الوهمية موجودة، فزمن سقوط الرجل، وأُنشوطَة المشنقة حولَ عنقه، لم يكن يكفي حتى ليحل الأُنشُوطَة، قبل أن تقتلع عمودَه الفقريَّ من عنقه.([1])
انعقد حاجِبا المفتش «جمال»، وهو يعيد فحص الجدران ببصره، مستعيدًا تلك الرواية التي سمعها من كل شهود الواقعة بلا استثناءٍ..
«طارق» سقط في الفجوة، أمام أعينهم أجمعين، وهو مربوط المعصمين خلف ظهره، ومربوط الكاحلين في قوَّةٍ، وأُنشوطَةُ الحبلِ حول عنقه..
ثم اختفى..
لم يستغرق هذا سوى ثانيةٍ أو ثانيتين، ارتدَّ بعدهما الحبل خاليًا..
وبقيَتْ الفجوة فارغة..
الكل أجمع على هذا، حتى الشيخ «حسن»، واعظ السجن..
الكل روى روايةً واحدةً..
ومخيفةً..
والكل لم يكن لديه تفسيرٌ..
أيُّ تفسيرٍ..
حتى الضباط والجنود، الذين بقوا خارج الحجرة، أكَّدوا أنهم قد اشتركوا جميعًا في فحصها، عقب اختفاء «طارق»، وشهدوا بلا استثناءٍ، أنهم رأوه يدخلها مع مأمور السجن، واثنين من الضباط، والشيخ «حسن»، وهي حجرة ذات مدخلٍ واحدٍ، كانوا جميعًا يقفون أمامه، ولم يشاهد أحدهم «طارق» يخرج منها بعدها..
ولم يكن له أدنى أثر..
لا داخلها..
ولا خارجها..
وبكل الحيرة والتوتر، غمغمَ المفتش «جمال»:
- ولكن هذا مستحيل! حتى (هوديني)([2]) نفسه ، لم يكن باستطاعته أن يفعلها، في تلك الثواني المحدودة.
غمغمَ مأمور السجن، في صوتٍ ارتجفَ، على الرغم منه:

- ولكنه حدثَ.
بسمَلَ الشيخ «حسن» وحوقل، قبل أن يُضيفَ في خفوتٍ:
- إنه فِعلٌ شيطانيٌّ.
رمقَهُ «فارس» بنظرة متوترةٍ، ثم عاد يدير عينيه في الحجرة، قبل أن يقول في عصبيةٍ واضحةٍ:
- والآن.. هل يمكنني القيامِ بعملي؟!
ألقى «جمال» نظرةً أخيرةً على جدران الفجوة، قبل أن ينهض متمتمًا:
- لا بأس.
تمتم بها متنهدًا، وأشار إلى الباقين، قائلاً:
- هيَّا.. فلنتركه يعمل وحدَه.
هتف «فارس» مذعورًا:
- لا.. ليس وحدي.
لم يكد ينطقها، حتى شعر بالخجل من نفسه، ومن ذُعرِه وانفعاله، فاستدرك في سرعةٍ وتوتُّرٍ:
- ولكن مع فريقي.
لم يحاول أحدهم التعليق على عبارته، وإنما أسرعوا جميعًا خارج المكان، تاركينَ أفراد فريقه ينضمون إليه في الحجرة، وسار المفتش «جمال» في خُطواتٍ سريعة، إلى جوار مأمور السجن، وهو يدفعُ أكبر قدرٍ ممكنٍ من الصرامة في صوتِهِ، كمحاولةٍ لإخفاء عصبيته وتوتره:
- سنذيع نشرةً بأوصافه كاملة، وسنوزع صورَهُ عبر شبكة الاتصالات، و...
قاطعَهُ المأمور في عصبيةٍ:
- وماذا؟! أما زِلتَ مُصِرًّا على أنه قد فرَّ من حجرة الإعدام؟! أوَّلاً: هذا لم يحدث عبر التاريخ، لا هنا، ولا في أي مكانٍ آخر من العالم، وثانيًا: وهو الأهم، أنه لو فرَّ منها، فسيفِرُّ إلى داخل السجن نفسه؛ لأنه لا يوجد أيُّ مَخرجٍ لها، إلا إلى السجن، وهذا يعني أن عليه أن يَفِرَّ من سجنٍ محكمٍ أيضًا، انطلقت فيه صفارات الإنذار، فورَ اختفائه.. أخبِرني بالله عليك، كيف يمكنه أن يفعل هذا؟!
كان سؤال المأمور منطقيًا، وعلى الرغم من هذا، فقد غمغمَ المفتش «جمال» في صرامةٍ:
- إنه ليس بساحرٍ.
قال المأمور بنفس العصبية:
- ولِمَ لا؟! ما رأيناه جميعًا هو نوعٌ من السحر بالفعل.
تسللَّت العصبيةُ إلى صرامة المفتش، وهو يقول:
- لا يمكنني أن أذكر هذا في تقريرٍ رسميٍّ.
أجابه المأمور، في عصبيةٍ أشد:
- ولا يمكنك أيضًا أن تتهمنا بالتقصير، أو بما هو أفظع.. لمجَّرد أنك تجهل ما حدثَ.
مرةً أخرى، كان حديث المأمور منطقيًا، وربما أكثر مما ينبغي، ولكن عقل «جمال» لم يكن قادرًا بَعْدُ على استيعاب هذا الموقف العجيب، الذي لم يتخيَّل حتى حدوثَ مثله، ولا في أبشع كوابيسه..
ولقد كانت حيرته تفوق توتره..
كيف يمكن أن يحدث هذا؟!
كيف؟!
الناس لا تختفي بهذه البساطة..!
ليس في مكانٍ كهذا على الأقل..

ولكن أيُّ تفسيرٍ بخلاف هذا سيبدو أكثر استحالةً؛ فلِكي يَفِر محكومٌ عليه بالإعدام، من داخل حجرة الإعدام، في قلب سجنٍ حصينٍ، عليه أن يَرشي الجميع، بدءًا من المأمور، وحتى أصغر جندي، بما في ذلك واعظ السجن نفسه..

وهذا مستحيل تمامًا..!

ما التفسيرُ إذًا؟!

شعر بإرهاقٍ شديدٍ في ذهنه، من كثرة ما حاولَ تفسير الأمر، وإقناع نفسه بإمكانية حدوثه، بأيَّة وسيلةٍ كانت، فرفع يده إلى رأسه، وهو يغمغم:

- هل يُمكنني تناول فنجان من القهوة؟!

أجابه المأمور، دون أن يفقد عصبيته:

- بالتأكَّيد.

في نفس الوقت، الذي راح يرتشف فيه قهوته، كان «فارس» وفريقه يفحصون كل شبرٍ في حجرة الموت، وجدران تلك الفجوة، التي لا يهبط فيها في المعتاد سوى الموتى..

كان كل شيءٍ في المكان يثير في نفسه ونفس فريقه قشعريرة الموت، حتى خُيِّلَ إليهم أنهم يشمون رائحته فيما يحيط بهم من هواءٍ؛ لذا فقد راحوا يعملون في سرعة، في محاولةٍ لإنجاز عملهم، في أسرع وقتٍ ممكنٍ..

كانت الحجرة تحوي عددًا هائلاً من البصمات، حتى إن «فارس» تساءَلَ: كم من البشر انتهت حياتهم فيها، على مَرّ السنين!

أما فجوة الموت، فعلى العكس من الحجرة، كانت تحوي بصماتٍ قليلةً للغاية، ولقد بدا له هذا أمرًا طبيعيًا، فمعظم من يسقطون فيها، لا يملكون لمس أحد جدرانها أبدًا، حتى آخر نفس لهم..

الشيء الذي ضاعفَ من توتره، هو أن غموض القضية سيجعله مضطرًا لإجراء كل الفحوص، والحصول على كل أنواع الأدلة، من بصماتٍ، وحتى عيّنات الحمض النووي..

وعلى الرغم من رغبته ورغبة فريقه، فقد استمرَّ عملهم ما يقرب من ست ساعات كاملة، غابت خلالها الشمس، وبدا المكان مع غيابها أكثر رهبةً وكآبةً..

وفي توتُّرٍ مُرهِقٍ، غمغمَ أحد الرجال:

- هل تظنون أن أرواح الموتى تحوم هنا طوال الوقت؟!

تلفَّت «فارس» حوله في عصبيةٍ، وهو يجيبه:

- أتعشَّم ألا يكون هذا صحيحًا؛ فمعظم من قضوا نحبهم هنا، من عتاة القتلة والسفاحين.

كلماته هذه جعلتهم جميعًا يتلفتون حولهم في خوفٍ، قبل أن يتساءل أحدهم في عصبيةٍ:

- ماذا تبقَّى أمامنا؟!

أجابه «فارس»، محاولاً التماسك:

- سنجمع عيّنات من أية سوائل، على جدران الفجوة، ثم ننصرف، وغدًا يحضر الخبير الهندسي، لفحص جدرانها.

تمتم الرجل، بنفس العصبية:

- عظيمٌ.

كانوا يشارفون على الانتهاء من عملهم، عندما غمغم أحد الضباط، الذين يقفون خارج المكان:

- ألن ينتهوا أبدًا.

غمغم زميله:

- رويدك يا رجل... لا يمكن أن يواصلوا، حتى منتصف الليل.
لم يكد ينطقها، حتى سطع فجأةً ذلك الضوء المبهر، على نحوٍ شديدِ السطوع، من داخل حجرة الإعدام..
وامتزج سطوعه بصرخات ألمٍ ورعبٍ..
بلا حدودٍ..

* * *

الفصل الثالث

«إنها أرواح الموتى»..

هتفَ «فارس» بالعبارة، على نحوٍ هيستيريٍّ عنيفٍ، ضاربًا الهواء بذراعيه، وكأنما يدرأ عن نفسه هجومًا ضاريًا، من وحشٍ أسطوريٍّ مُفترِسٍ، حتى إن فريق التمريض اضطر إلى الإمساك بذراعيه وساقيه في قوَّةٍ، حتى يتمكن الطبيب من حقنه بعقارٍ مُهدئٍ..

وفي توتر لا محدود، وقف المفتش «جمال» يراقب ما يحدث، معقود الحاجبين، يتابع ردود فعل «فارس»، الذي أحاط الأطباءُ عينيه بضماداتٍ مُهدئةٍ، والذى راح جسده يهدأ تدريجيًا، ثم لم يلبث أن راح في نومٍ عميقٍ، فتنفَّس الجميع الصعداء، وغمغم «جمال» في عصبيةٍ:

- ماذا عن الباقين؟!

انتزع الطبيب قفازيه المطاطيين، وهو يجيبُ:

- نحن نجهل في الواقع ماذا أصابهم؛ فجميعهم في حالةٍ هستيريَّةٍ غير طبيعيةٍ، وأعينهم ملتهبة على نحوٍ عجيبٍ، كما لو أنهم قد تعرضوًا لمصابيح قويَّةٍ.

أومأ «جمال» برأسه متفهمًا، وغمغم:

- يمكنك أن تقول هذا.

تطلَّع إليه الطبيب مستفسرًا، فالتقط «جمال» نفسًا عميقًا، أطلقه في زفرةٍ شديدةِ التوتر، قبل أن يسأل:

- ومتى ستشفى أعينهم في رأيك؟!

هزَّ الطبيب رأسه نفيًا، وهو يغمغم:

- ما دمتُ أجهل السبب، فمن العسير إجابة هذا السؤال.

ولم يحاول «جمال» مناقشته..

فما مِنْ أحدٍ يعرف السبب..!

أو يعلم حتى ماذا حدث..!

كل الشهود أشاروا إلى ضوءٍ مُبهرٍ، انبعث من الفجوة بغتةً..

ضوء شديد السطوع، كما لو أن الشمس قد سقطت فجأةً، في فجوة الموت، وانطلقت في عيونهم أجمعين..

الضباط والجنود خارج الحجرة رأوا الضوء المبهر، يتفجَّر من كل فتحة ممكنةٍ، وعلى الرغم من أنه لم يرتبط سوى بصفيرٍ عجيبٍ، ضرب عقولهم مباشرةً، إلا أنهم تصوَّروا أن انفجارًا عنيفًا قد حدث هناك، فاندفعوا نحو الحجرة، وعندما فتحوا بابها، بهرهم ذلك الضوء الرهيب، وأجبرهم على إغلاق أعينهم، و...

ولا أحد يدري بعدها ماذا حدث..

عندما وصل المأمور إلى المكان، كان ضباطه ذاهلين، حتى إنه استغرق ثلاثين ثانية؛ لانتزاعهم من ذهولهم هذا..

ولم يكن هناك ضوء..

أي ضوء..

ولم يكن هناك حتى صراخ..

كان الكل ذاهلاً، ملتهب الأعين، في حين كانت الحجرة صامتةً، هادئةً، بضوئها الخافت، وجدرانها الكئيبة، وتلك التركيبات الخشبية في منتصفها، والتي تمنحها مشهدًا مُخيفًا للغاية..
وبسرعةٍ، تم نقل الجميع لإسعافهم..
«فارس»، وفريقه، والضباط، والجنود..
وفي دقة، تمت إعادة فحص الحجرة..
لم يكن هناك أي مصدر للضوء، سوى المصباح الفردي، المتدلِّي من السقف، والذي ظلَّ سليمًا، يعمل بكل كفاءةٍ..
وهذا يضع لبنةً جديدةً، في هذا اللغز الغامض..
العجيب..
والمخيف..
كل هذا دار في خلد «جمال»، وهو يغادر المستشفى، عائدًا إلى مكتبه، في مديرية الأمن..
طوال حياته، كان من أشهر رجال البحث الجنائي في (مصر)..
لم يعجز عن حل قضيةٍ واحدةٍ..
حتى القضايا، التي يحار فيها زملاؤه، كانوا يسندونها إليه، ثقة من الجميع في أنه سيكشف غموضها، ويحل ألغازها، إلى حد أن زملاءه قد أطلقوا عليه اسم (شيرلوك هولمز) (مصر)
وها هو ذا يقف الآن عاجزًا..
ولأوَّل مرةٍ..
وليس عاجزًا فحسب، بل وحائرًا أيضًا..
فلأوَّل مرةٍ في حياته، يواجه لغزًا بلا تفسيرٍ..
على الإطلاق..
ورؤسائه بالطبع ينتظرون منه أن يواصل سيرته، ونجاحاته المعتادة، في كشف ما استغلَقَ من ألغازٍ، غير متصوَّرين أنه اليوم أمام لغز الألغاز..
قطع أفكاره رنين الهاتف الداخلي لمبنى المديرية، فالتقط سمَّاعته بحركةٍ آليةٍ، مغمغمًا:
- ماذا هناك؟!
أتاه صوت الرقيب «أحمد»، المسئول عن مكتبه، وهو يقول بآليته المعتادة:
- هناك رجل يُصرَّ على مقابلتك شخصيًا يا باشا.
أجابه «جمال»، في حدةٍ لم يتعمَّدها:
- لن أقابل أحدًا اليوم.
واصل «أحمد» بنفس الآلية:
- لقد طلب منِّي إبلاغ سيادتك أمرًا، ولتقبل أو ترفض مقابلته بعدها.
بدا عصبيًا، وهو يسأل:
- أي أمرٍ هذا؟!
صمت «أحمد» لحظاتٍ، وبدا مما نقلته سمَّاعة الهاتف إلى «جمال» أنه يستمع إلى ذلك الشخص، قبل أن يجيب:
- يقول إن لديه معلومات عن الضوء.
سرت قشعريرةٌ عجيبةٌ في جسد «جمال»، فور سماعه الكلمة الأخيرة، وبلا وعيٍ، قبضت أصابعه على سمَّاعة الهاتف في قوةٍ، وهو يهتف:

- الضوء؟!
عجز لسانه عن النطق بعدها لحظاتٍ، تساءل «أحمد» خلالها، بنفس الآلية:
- هل أصرفه يا باشا؟!
بدا «جمال» شديدَ الانفعال، وهو يهتف:
- بل أحضِره فورًا.
لم يستطع تمالك نفسه، بعد أن وضع سمَّاعة الهاتف الداخلي، فنهض من خلف مكتبه واتجه نحو الباب، وكانه يتعجَّل وصول زائره الغامض، وعقله يكاد يلتهب، من فرط تساؤلاته..
ماذا يعرف ذلك الزائر عن الضوء؟!
إن شيئًا من هذا لم ينشر أبدًا..
بل ولم يُشِر إليه مخلوقٌ واحدٌ..
فكيف عَلِمَ؟!
كيف؟!
وهل يعني بالفعل ذلك الضوء الساطع، الذي أصاب عيون «فارس» وفريقه، أم أن حديثه عن ضوءٍ آخر؟!
بدا له أنه استغرق دهرًا في تساؤلاته، على الرغم من أن «أحمد» لم يستغرق سوى دقائق ثلاث، حتى يصعد بالرجل، وما إن دق باب المكتب، حتى فوجئ بالمفتش «جمال» يفتحه في سرعةٍ، فتراجع في دهشةٍ، ولاحظ أن «جمال» لم يلقِ عليه نظرةً واحدةً، وإنما ركَّزَ بصره على وجه ذلك الزائر..
كان رجلاً في منتصف الأربعينيات من عمره، وخطَّ الشيب فَودَيهِ، فمنحه مظهرًا وقورًا، وإن بدا وجهه شاحبًا على نحوٍ ما..
ولقد تطلَّع إلى عيني «جمال» مباشرةً، دون أن يُطرَف له جفن، فبادره هذا الأخير قائلاً، وهو يفسح له الطريق:
- تفضل.
دلف الرجل إلى المكتب في هدوءٍ، يوحي بأنه ليس من ذلك الطراز، الذي اعتاد خشية الشرطة أو السلطة، وتساءل «أحمد» بآليته:
- أية خدمة أخرى يا باشا؟ هل أنتظر حتى...
فاجأه أن أغلق «جمال» الباب في وجهه، وكأنه لا يراه أو يسمعه، فغمغم بكل دهشته:
- ماذا فعلت؟!
أما «جمال»، فقد قاد زائره إلى المقعد المقابل لمكتبه، ثم دار ليجلس على مقعده خلفه، وهو يسأله في لهفةٍ، لم يحاول إخفاءها:
- ماذا تعرف عن الضوء؟!
ابتسم الرجل ابتسامةً خفيفةً، وكأنما يسعده أن أثار لهفة وفضول «جمال» إلى هذا الحد، ثم قال في رصانة:
- دَعني أقدِّم لك نفسي أوَّلاً... أنا الأستاذ الدكتور (رأفت فهمي).. أستاذ النسبية الحديثة، في جامعة (الثورة).
قال «جمال» بنفاد صبرٍ:
- تشرفنا.. والآن ماذا لديك عن الضوء؟!

حافظ الرجل على ابتسامته الهادئة، وهو يقول:
- ذلك الضوء يتفجَّر فجأةً، دون مصدرٍ واضحٍ، ويغشى العيون والأبصار، و...
قاطعَهُ «جمال» في توتُّرٍ:
- نعم.. نعم.. إننا نتحَّدث عن الضوء نفسه، وأنا أعرف حاليًا ما يفعله... السؤال هو: ما ماهيته بالضبط؟!
اعتدل الدكتور «رأفت»، وسرى في هدوئه شيءٌ من التوتر، وهو يقول:
- فليكن.. الواقع أنَّ لي تلميذًا، ويدعى..
كان «جمال» ينصت إليه بكل اهتمامه، ويرهف سمعه جيدًا، و...
وفجأةً، سطع ذلك الضوء المبهر في الحجرة..
في منتصفها تمامًا..
وكان كطبيعته، شديدَ السطوع والإبهار، حتى إن «جمال» قد اضطر إلى إغلاق عينيه، وهو يصرخ:
- لا.. ليس هنا.
وفي أعمق أعماق عقله، انطلق ذلك الصفير..
وصرخ عقله..
وصرخ..
وصرخ..
ثم فجأةً، انتفض جسده كله، مع لمسةٍ على كتفه، جعلته يفتح عينيه عن آخرهما، ليحدِّق في وجه الرقيب «أحمد»، والذي كان شديد الذعر، وهو يسأله:
- أأنت بخير يا باشا؟!
حدَّق فيه «جمال» لحظة أخرى، ثم نقل بصره إلى ما خلفه، حيث كانت الحجرة مكتظة بعددٍ من الضباط والجنود، من مختلف الرتب، وكلهم يتطلَّعون إليه في مزيجٍ من التوتر والخوف..
ولم يكن هناك ضوءٌ ساطع في الحجرة.. ولا أيُّ ضوء..
وكان زائره قد اختفى..
تمامًا..

* * *

الفصل الرابع

« مستحيل..!»
ردَّدَ «جمال» العبارة عدة مراتٍ، وهو يدور في حجرته بكل توتره، وحوله وقف زملاؤه صامتين، لا تقل حيراتهم عن حيرته، وإن لم يشاركوه عملية التفتيش، التي أجراها للمرة العاشرة، قبل أن يهتف في عصبيةٍ:
- لا يوجد أدنى أثرٍ له.. وهذا مستحيلٌ..! ألم توصله بنفسك إلى هنا يا «أحمد».. أين ذهب إذًا؟!
قلبَ «أحمد» كفيه في حيرةٍ، وهو يُغمغِمُ:
- مَن هذا الذي أوصلته يا باشا.
هتفَ به «جمال» بكل عصبيةٍ:
- ذلك الرجل، الذي طلب مقابَلَتي شخصيًا.. ألا تذكُرُه؟! الدكتور «رأفت فهمي».. الأستاذ بجامعة (الثورة)..
حدث هذا منذ أقل من نصف الساعة، ومن المستحيل ألا تذكره.
تضاعفت الحيرة في وجه الرقيب «أحمد» وعينيه، وبدا مضطربًا مرتبكًا، في حين انبرى أحد الضباط، قائلاً:
- الواقع أنه لم يكن هناك أي زوَّارٍ يا سيادة المفتش.. إننا حتى لم نكن نعلَمُ أنك في مكتبك.. لم يرَك أحدٌ، عند وصولك إلى هنا.
حدَّق «جمال» في وجوههم بدهشةٍ مستنكرةٍ، قبل أن يهتف في حدةٍ:
- أيُّ عبثٍ هذا.. لقد وصلت مكتبي في الثالثة والربع تقريبًا، وبعدها بقليل، أخبرني «أحمد» أنه هناك من يرغب في مقابلتي، ولم أكن واهمًا، عندما استقبلت أستاذ جامعة (الثورة) هذا هنا، قبل أن يسطع ذلك الضوء، و...
بتر عبارته بغتةً، عندما شاهَدَ تلك النظرة المشفة في عيونهم، والممتزجة بحالةٍ من الحيرة والارتباك، وأدهشَهُ أكثر اتساعُ عيني الرقيب «أحمد»، الذي نظر في ساعته، قبل أن يرفع عينيه إليه في ارتياعٍ، جعل «جمال» يدير بصره في حركةٍ غريزيَّةٍ إلى ساعة الجدار، و..
واتسعت عيناه عن آخرهما..
كانت عقارب الساعة تشير إلى الثانية وست وأربعين دقيقة فحسب..
وكان عقرب الثواني يتحرك، وليس ثابتًا..
وفي صوت غلبته الدهشة، غمغم «جمال»:
- هذه الساعة ليست..
مرةً أخرى بتر عبارته، مع تزايد نظرة الإشفاق في العيون، فتمتم أحد الضباط في حذرٍ:
- إنها مضبوطةٌ يا سيادة المفتش.
شعر «جمال» برأسه يدور، وبعجزه عن الوقوف على قدميه، فمدَّ يده يحاول الإمساك بأي شيءٍ، قبل أن يسقط أرضًا، فأسرع بعض ضباطه، مع الرقيب «أحمد» للإمساك به، وهو يردِّدُ ذاهلاً:
- مستحيل..!
لم يستطع استيعاب الأمر قَطُّ..
لقد وصل إلى مكتبه في الثالثة والربع..
ليس لديه أدنى شكٍّ في هذا..

ولقد أحضر إليه الرقيب «أحمد» ذلك الرجل بنفسه، في حوالي الثالثة والنصف..
فكيف لا يذكر هذا؟!
وكيف لم يرَه أحد وقد ألقى التحية على نصف الموجودين، وهو في طريقه إلى المكتب؟!
بل كيف عاد به الزمن إلى الوراء؟!
كيف؟!
كيف؟!
كاد عقله يلتهب، من شدة حيرته، وغموض الموقف، ثم لم يلبث أن تذكَّرَ شيئًا هامًا، فهتفَ:
- حتى ولو لم يرني أحدكم أدخل مكتبي، فمِن المؤكَّدِ أن وصولي إلى المبنى قد تم تسجيله عند المدخل.
أجابه أحد الضباط في حذرٍ مُشفقٍ وهو يلتقط سمَّاعة الهاتف الداخلي:
- هذا أمرٌ يمكن التيقن منه.
أدار قرص الهاتف برقمٍ داخليٍّ، وما إن سمع صوت محدثه، حتى سأله في صرامةٍ، غلب عليها توتره:
- متى وصل العقيد «جمال» إلى مكتبه بالضبط؟!
انعقد حاجباه في شدةٍ وهو يستمع إلى الجواب عبر الهاتف، ثم سأل في مزيج من صرامة أكثر، وتوتر أكبر:
- أأنت واثقٌ من هذا؟!
بدا من ملامحه أن الجواب قد صدمه، فسأله «جمال» في عصبية:
- بم أجاب؟!
أبعدَ الضابط سمَّاعة الهاتف عن أذنه، وهو يجيب في حيرةٍ كبيرةٍ:
- بأنك لم تصل بعد يا سيادة المفتش.
اتسعت عيون الجميع في ذهولٍ، فازَ فيه «جمال» بالنصيب الأكبر، وهو يقول في عصبيةٍ بالغةٍ:
- ولكن هذا مستحيل!
ثم وضع كفه على وجهه، وراح يبذُل جهدًا رهيبًا في أعماقه للسيطرة على مشاعره.. وإفساح مجال لعقله؛ لتحليل الموقف، ومحاولة تفسيره..
الكل يؤكِّد أنه لم يصل مكتبه على نحوٍ طبيعيٍّ..
ولم يستقبل أي زائر أيضًا..
ولكنه هنا.. في مكتبه..
هذه هي الحقيقة الوحيدة المؤكَّدة...
كان يعتصر ذهنه في شدة، عندما غمغم أحد الضباط في حذرٍ:
- ربما تحتاج إلى بعض الراحة أيها المفتش، و...
قاطعه «جمال» في حزم محنق:
- كَّلا..
ثم اعتدل في مجلسه، وبدا وكأنه قد استعاد تلك الشخصية الحازمة، التي عرفه الجميع بها، وهو يقول بلهجةٍ آمرةٍ:
- أريد ملف قضية «طارق بشير».. فورًا.
تبادل الضباط نظرةً متوترةً، قبل أن يغمغم أحدُهم، في حذرٍ مُشفقٍ:

- ولكنك تتولاها بالفعل يا سيادة المفتش.
أجابه في صرامةٍ، وهو ينهض من مقعده، ويعود إلى ما خلف مكتبه، وكأنما تجاوَزَ ذلك الموقف كله:
- لست أقصد قضية اختفائه في السجن.. أريد ملف القضية التي أُدين فيها.. قضية القتل.
أجابه آخر، في حذرٍ أكثر:
- لقد صدر الحكم النهائي فيها، و..
صاح فيه «جمال» في حدةٍ:
- أريد ملفها على مكتبي فورًا.
ثم لوَّح بذراعه كلها، مستطردًا:
- ولا أريد أحدًا مكنم هنا.
بدأ الجميع يغادرون الحجرة على عجلٍ، ولكنه استوقف أحدهم في حزمٍ:
- ابق أنت يا «سامي».
تردَّ الرائد «سامي رضوان» لحظةً، ثم أطاع الأمر، وانتظر حتى انصرف الباقون، ثم أغلق الباب خلفهم، وما إن فعل، حتى نهض «جمال» من خلف مكتبه، وقال وهو يدور حوله:
- هذه القضية غير طبيعية يا «سامي»، وكل خُطوةٍ فيها محاطة بكمٍّ هائلٍ من الغموض، يحتاج إلى إعادة ترتيب أوراقها.
غمغم «سامي» في حذرٍ:
- كما تأمر يا سيادة المفتش.
رمقه «جمال» بنظرة صارمة، ثم تابع:
- راجِع معي الوقائع منذ البداية، وستجد أن غموضها عجيبٌ بالفعل.. رجل يصل إلى حجرة إعدامٍ ممكنةٍ، داخل سجن شديد الإحكام، ويتم تنفيذ حُكم الإعدام فيه بالفعل، ولكنه يختفي، دون أن يترك خلفه أدنى أثرٍ.. وعندما يبدأ جمع الأدلة من المكان، تسطع فيه شمسٌ عجيبةٌ، يصاب الكل بعدها بالتهاب جفونٍ غريبٍ، وبحالةٍ من الذعر، لم أرَ لها مثيلاً من قبلُ.
بدأ «سامي»، يتجاوب معه، وهو يقول:
- أمور عجيبة بالفعل.
تابع «جمال»، وكأنه لم يسمعه:
- ثم ذلك الذي حدث هنا.
استعاد «سامي» توتره وتردُّدَه، وهو يلقي عليه نظرةً حَذِرةً، لم يبالِ بها «جمال»، وهو يواصل:
- شخص زارني في مكتبي، وعرَّف نفسه بأنه أستاذ جامعي، فيما وصفه بالنسبية الحديثة، ثم يسطع ذلك الضوء المبهر، الذي وصفَهُ رجال المعمل الجنائي، ويختفي بعدها الرجل، ويعود بي الزمن نصف ساعة تقريبًا إلى الوراء.. كيف يمكنك أن تفسِّرَ هذا؟!
تمتم «سامي»، في حذرٍ أكبر:
- إرهاق عمل .
التفت إليه «جمال» بنظرةٍ حادَّةٍ، وهو يقولُ في غضبٍ:
- أهذا ما علَّمتُك إياه؟!
تردَّد «سامي»، دون أن يحر جوابًا، فتابع «جمال» بنفس الغضب:

- لقد اخترتك؛ لأنني أعتبرك من أفضل تلامذتي، وأذكر جيدًا أنني قد أخبرتك عن تلك القاعدة، التي وضعَها (آرثر كونان دويل)([3])، في روايات (شيرلوك هولمز)، والتي تقول: «إنه عندما تستبعد المستحيلات؛ فإنَّ ما يتبقى هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها».

تردَّدَ «سامي» لحظة أخرى، قبل أن يغمغم في حذرٍ:

- هذا يتوقف على مفهوم (المستحيلات) يا سيِّدي.

أشار «جمال» بذراعه، وهو يقول:

- أعلم أنك تشير إلى ما أخبرتكم به عن الزائر الغامض، ومشكلة العودة بالزمن، ولكنه، وعلى الرغم من عجزكم عن تصديقه أو فهمه، فهو بالنسبة لي ليس من المستحيلات؛ لأنه أمرٌ عشته بنفسي، وكان من الممكن أن أقنع بأنه مجرَّد ضغطٍ عصبيٍّ، وإرهاق في العمل، لولا أمرٌ واحدٌ.

ثم أشار بسبَّابته، مردفًا في حزمٍ:

- إن نظرية الإرهاق في العمل، لا يمكن أن تفسِّر وصولي إلى مكتبي، دون أن يعلم شخصٌ واحدٌ بهذا، ودون أن يسجِّل مراقب المدخل وصولي.

ارتفع حاجبا «سامي» لحظةً، ثم عادا ينخفضان، وهو يقول في حزمٍ:

- أنت على حقٍّ يا سيادة المفتش.

بدا الارتياح على وجه «جمال»، وهو يقول:

- عظيم.. دعنا إذًا نعتبرها نقطة انطلاق.

لم يكد يُنهي عبارته، حتى وصل الرقيب «أحمد»، حاملاً ملف قضية (طارق بشير)، فالتقطه منه «جمال» في لهفةٍ، وعاد إلى ما خلف مكتبه، ليطالعه في سرعةٍ ولهفةٍ..

وطوال مطالعته للملف، لم ينطق «سامي» حرفًا واحدًا..

كانت كلماتُ أستاذٍ في فنِّ البحث الجنائي قد أيقظت كومةً من التساؤلات في نفسه، وخاصةً مع حقيقة وصول أستاذه إلى مكتبه، دون المرور بالأساليب التقليدية..

ثم هناك ذلك الضوء الساطع، الذي يتحدَّث عنه طوال الوقت، والذي لم يشعر به، أو يرصده شخصٌ واحدٌ، في المبنى كله..!

لقد أدركوا وجوده في حجرته، عندما سمع الرقيب «أحمد» جلبةً داخل الحجرة، ففتح بابها، ليفاجأ بالعقيد «جمال» داخلها، في حالة أشبه بالذهول..

«انظر..»

قطعت كلمة «جمال» حبل أفكاره، فالتفت إليه متسائلاً، وسمعه يكمل في حماس:

- «طارق» أيضًا أشار إلى ذلك الضوء الساطع، الذي رآه رجال المعمل الجنائي في حجرة الإعدام، والذي سطع هنا أيضًا، ولكن أحدًا لم يلق لإشارته هذه بالاً.

تردَّدَ «سامي» لحظةً، ثم قال في خفوتٍ:

- ولكن أحدًا لم ير ذلك الضوء هنا، يا سيادة المفتش.

رفع «جمال» عينيه إليه بحركة حادة، وقال في عصبيةٍ:

- ماذا تعني؟! لقد كان ضوءًا شديد السطوع، ومن المستحيل ألا يرصده أحدٌ هنا.

قلب «سامي» كفيه في حيرةٍ، موحيًا بإجابته، فانعقد حاجبا «جمال» في شدةٍ، وقال في عصبيةٍ أكثر:

- لا تقل لي أن أحدًا لم يشعر بكل ذلك الضوء..! لقد كان شديد السطوع، حتى إنه من المستحيل ألا يرصده أحد.

غمغم «سامي»:
- ولكن هذا ما حدث بالفعل.
تراجع «جمال» في مقعده، وبقي محدَّقًا في وجه «سامي» لحظات، قبل أن يتمتم، وكأنه يوجِّه الحديث إلى نفسه:
- ولكن كيف؟!
عادت حيرته تلتهم عقله في عنفٍ..
لقد كان الضوء ساطعًا، أكثر من أي ضوءٍ شاهده في حياته..
كان وكأن الشمس نفسها قد أشرقت في قلب حجرة مكتبه..
وأمام وجهه مباشرةً..
إنه لسعيد الحظ أن يواجه هذا، ثم لا يصاب بنفس الالتهابات، التي أصابت أعين أفراد فريق المعمل الجنائي..
وحتى هذا، لا يجد له سببًا..!
لماذا هم، وليس هو؟!
لماذا؟!
مرةً أخرى، وقبل أن يستغرق في تساؤلاته، قاطعَهُ صوت طرقات على باب مكتبه، أعقبها دخول أحد ضباطه، وهو يقول في حذرٍ:
- لقد قمنا بعمل تحرياتٍ سريعةٍ، عن ذلك الشخص، الذي قلت: إنه قد زارك في مكتبك يا سيادة المفتش، على الرغم من أن...
قاطعه «جمال» في لهفة عصبيةٍ:
- وما الذي توصَّلتم إليه؟!
أجابه في تردُّدٍ:
- لم نجد أستاذًا جامعيًا بنفس الاسم، ولا حتى فرع علمي، يعرف باسمِ النسبية الحديثة، ولكن الأهم..
تردَّدَ الضابط لحظةً، وكأنما يعجز عن الاستمرار، فتهتف به «جمال» في عصبيةٍ:
- ما الأهم يا رجل.
واصل الضابط تردُّدَه لحظةً، ثم أجاب في سرعة:
- إنه لا توجد جامعة، لا هنا ولا في أي بلدٍ عربيٍّ آخر، تحمل اسم جامعة «الثورة».
وكانت مفاجأةً جديدةً..
وعنيفةً.
* * *

الفصل الخامس

دقَّ مدير الأمن سطح مكتبه بقبضته في قوَّةٍ، وهو يقول للمفتش «جمال» في صرامةٍ غاضبةٍ:
- هذا الأمر غير قابل للمناقشة أيها العقيد.. سيادة الوزير قرأ التقارير كلها بنفسه، وقرَّرَ منحك إجازة إجبارية، حتى تسترد قدرتك على التفكير السليم.
بدا «جمال» شديدَ التوتر، وهو يُجيبه:
- أعلم أن الأمر يبدو أشبهَ بالجنون، ولكن القضية كلها تتسم بهذه الصفة، وليس منذ اختفاء «طارق بشير» فحسب، وإنما أعني منذ بدايتها؛ فقد راجعت ملف القضية، التي أُدينَ فيها «طارق»، فوجدت الغموض يحيط بها، منذ اللحظة الأولى.
قال مدير الأمن، في صرامةٍ أكثر:
- القضية تم حسمها في ساحة المحكمة، والرجل صدر ضده حكمًا نهائيًا.
أشار «جمال» بيده، قائلاً في توترٍ:
- على الرغم من عدم العثور على جثة القتيل «عادل إبراهيم».
هتفَ مدير الأمن في غضبٍ:
- ولكن الأدلة كلها كانت تثبت مصرعه.. الدماء في حجرة مكتبه، واختفاؤه التام و..
لم يكن هذا يتفق مع القواعد الرسمية، ولا حتى مع قواعد اللياقة، ولكن «جمال» قاطعَهُ في توترٍ:
- كلها أدلة ظرفية.
قال مدير الأمن في حدةٍ:
- ليس هذا شأننا.. نحن سُلطة تنفيذية فحسب، نلقي القبض على المتهم، ونقدِّمه للعدالة، وهي تصدر الحكم، ثم تعود إلينا مهمة تنفيذه.
قال «جمال»، في شيءٍ من الصرامة:
- وماذا حدث عند التنفيذ؟!
صمت مدير الأمن تمامًا، عند هذه النقطة، وبدا شديد التوتر، مما جعل «جمال» يتابع، وبنفس اللهجة:
- اختفى المحكوم عليه، داخل حجرة مغلقة، ليس لها سوى مَخرجٍ واحدٍ، وعلى بابها تقف دستة من الجنود والضباط.
قال مدير الأمن في عصبية:
- هناك تفسير لهذا حتمًا.
أجابه «جمال» في سرعةٍ:
- وهذا ما أبحث عنه بالفعل.
انعقد حاجبا مدير الأمن في غضبٍ، وهو يقول في صرامةٍ حادَّةٍ:
- ليس بهذه التقارير الخزعبلية.
ثم مال ليستند بقبضتيه على سطح مكتبه، مستطردًا ولهجته تزداد حدَّةٍ:
- لسنا نُخرج هنا فيلمًا من أفلام الخيال العلمي.. هناك تقارير رسمية، تُقدَّم للمسئولين في الوزارة، وللنيابة والقضاء، ولست مستعدًا لتقديم تقريرٍ كهذا، لكل تلك الجهات.
حاول «جمال» أن يسيطر على أعصابه وانفعالاته، وهو يقول:

- كيف تفسِّر إذًا اختفاء جثة «عادل إبراهيم» من مكتبه، في الطابق العاشر، من بناية تطل على أكبر شوارع (القاهرة)، بعد أن أقرَّ كل الشهود أنه كان في مكتبه، عندما دخل إليه (طارق)، ولم يغادر أحدهما المكتب، الذي يُفضي بابه الوحيد إلى ساحة الشركة بكل ما فيها من عملاء وموظفين، حتى اكتشاف الأمر.
قال مدير الأمن:
- ربما له شريك آخر، أخرجَ الجثة من النافذة.
كانت لهجة «جمال» مستنكرة، وهو يقول:
- من نافذةٍ تطل على الشارع، في وضح النهار..
تسلَّل شيءٌ من الحيرة إلى ملامح مدير الأمن، قبل أن يستعيد جِدته وصرامته، قائلاً:
- القضاء وجده مذنبًا.
اندفع «جمال»، قائلاً:
- نحن والقضاء ارتكبنا خطأً فادحًا، عندما اتهمنا «طارق»، فقط لأنه لم يكن هناك متهم سواه.. كان ينبغي أن نولِّي حديثه شيئًا من الاهتمام، على الرغم من غرابته.
ضرب مدير الأمن سطح مكتبه براحته، قائلاً:
- النيابة رأت أن أقواله العجيبة لم تكن سوى محاولةٍ منه لادعاء الجنون، حتى يفلت من حبل المشنقة، ولكن الطب الشرعي أثبتَ سلامة قواه العقلية.
مال «جمال» نحوه، وقال في حزمٍ:
- ولكن ماذا لو أنَّه على حق؟!
حدَّق فيه مدير الأمن لحظاتٍ في دهشة، قبل أن يقول في عصبية:
- لم يعد هذا يهم.. لقد سبق السيف العزل، وأصدر القضاء حكمه النهائي.
اعتدل «جمال»، قائلاً بنفس الحزم:
- التطوُّرات الجديدة كانت تحتِّم إعادة فتح ملف القضية.
ضرب مدير الأمن سطح مكتبه بقبضته مرةً أخرى، وهو يقول في حزمٍ صارمٍ:
- كلَّا.
ثم اعتدل، مستطردًا بكل الصرامة:
- اعتبر نفسَك موقوفًا عن العمل، منذ هذه اللحظة.. اذهب إلى منزلك، ولا تعد إلا عندما يقرِّر الأطباء أنك قد استعدتَ قدرتك على التفكير السليم.
تطلَّع إليه «جمال» في ضيق، مدركًا أنه من غير المجدي مواصلة النقاش، فاستدار يغادر حجرة مكتبه، في خطواتٍ سريعةٍ عصبيةٍ، ووجد «سامي» في الممر المقابل لها، يسأله في قلقٍ:
- ماذا حدث؟!
أجابه دون أن يتوقف:
- تحوَّل الأمر، من إجازة إجبارية، إلى إيقاف عن العمل.
ارتفع حاجبا «سامي» في دهشةٍ فَزِعةٍ، وهو يلحق به، مغمغمًا:
- هل تسمح لي بمصاحبتك يا سيادة المفتش؟!
لم يُجِب «جمال»، فواصل «سامي» سيره السريع إلى جواره، حتى غادرا المبنى معًا، وأسرع يستقل السيارة إلى جواره، فقال «جمال» في حِدَّةٍ:
- هل أسندوا إليك مهمة مراقبتي؟!

أجابه «سامي» في هدوءٍ عجيبٍ، وهو يفتح حقيبته:
- بل هي مبادرة شخصية، فقد أردت أن أهديك هذا..
أخرج من الحقيبة ملفًا ضخمًا، وضعه أمام «جمال»، الذي حدَّق فيه بدهشة، مغمغِمًا:
- أهو..
قاطعه «سامي» مبتسمًا:
- نعم.. ملف قضية «طارق بشير».. تصوَّرت أنه سيكون تسليةً مناسبةً خلال إجازتك الإجبارية.
التفت إليه «جمال» بنظرة امتنانٍ حاردةٍ، فتابعَ «سامي»:
- وبالمناسبة، لقد تقدَّمت بطلب إجازتي السنوية؛ فلقد تصوَّرت أيضًا أنك ربما تحتاج لمن يُعاوِنك في تسلية إجازتك.
استعاد «جمال» حزمه، وهو يدير محرِّك سيارته، قائلاً:
- اسحبها.
سأله «سامي» في دهشة:
- أسحب ماذا؟!
أجابه بنفس الحزم، قبل أن ينطلق بالسيارة.
- إجازتك السنوية.. مساعدتك ستفيد تسلية إجازتي أكثر بالتأكيد؛ لو أنك موجودٌ رسميًا في العمل.
ارتفع حاجبا «سامي»، ثم انخفضا، وهو يستعيد ابتسامته، مغمغمًا في إعجابٍ:
- سأسحبها فورًا.
أجابه «جمال»، في حزمٍ أكثر:
- هيَّا.. لا تضيع الوقت.. سأنتظرك في منزلي، في التاسعة مساء.
غادر «سامي» السيارة، وانطلق «جمال» بها على الفور..
كانت مبادرة تلميذه تنعشه، ولكن غموض وغرابة القضية تدفع بعاصفةٍ من الأرق في عقله ومشاعره.
وبينما ينطلق بسيارته عائدًا إلى منزله، راح عقله يسترجع وقائع القضية الأساسية..
لقد وصل «طارق» إلى مكتب «عادل»، دون موعد سابق، ودون أيَّة معرفة سابقة، كما أكَّدت سكرتيرة «عادل»،
وأكَّد «طارق» نفسه، الذي أشار إلى أنه لم يعرف حتى السبب، الذي دفعه للقاء «عادل»، ولكن في أعماقه كان هناك شيءٌ غامضٌ، يدفعه دفعًا إلى تلك المقابلة.
وبعد إلحاحٍ منه، وتأكيدٍ على خطورة الأمر، وافق «عادل» على مقابلته، وأدخلته سكرتيرته بنفسها إلى مكتبه، حيث أكَّدت في شهادتها أنه كان من الواضح أن «عادل» لم يلتقِ به من قبل قَطُّ.

غادرت السكرتيرة المكتب بعدها، وأغلقت بابه خلفها، وبعد أقل من عشر دقائق، سمع كل من في المكتب صوتَ جلبةٍ في الداخل، فأسرعوا إلى هناك؛ ليجدوا «طارق» وحيدًا، دون أي أثرٍ لمديرهم «عادل»، فيما عدا بقعة من الدم على طرف مكتبه، أكَّد المعمل الجنائي أنها تنتمي إليه جينيًا..
والعجيب أن «طارق» كان في حالة ذهولٍ، استغرقت دقائق خمس لانتزاعه منها، وعندما أفاق، بدت عليه دهشة كبيرة، وأقسم إنه لا يعرف ماذا حدث، ولا أين ذهب «عادل»..

لم تكن على جسده أو ملابسه أيَّة آثارٍ لدماء «عادل»، ولكن بخلاف هذا، فكُلّ شيء يثبت أنه آخِرُ من رآه حيًا..
وآخِرُ من دخلَ إلى الحجرة، ذات المدخل الواحد..
ولم يُسفِر البحث، أو تسفر تحريات البحث الجنائي عن أية آثارٍ أخرى..
ولا حتى «عادل» نفسه..
وعلى الرغم من استحالة الأمر، لم تجد الشرطة أمامها سوى اتهام «طارق»، الذي تم تقديمه إلى المحاكمة، التي تأثرت بشهرة «عادل» الواسعة، كخبير في تكنولوجيا المعلومات، وصاحب واحدة من أشهر الشركات العاملة في هذا المجال، فأصدرت حكمها على «طارق» بالإعدام شنقًا، وتم تأييد الحكم في محكمة النقض أيضًا..
ولكن «طارق» لم يعترف بارتكابه الجريمة قَطُّ..
لقد أصرَّ على أنه بريءٌ، وعلى أنه لا يعرف ماذا حدثَ، منذ دخوله إلى الحجرة، وحتى اقتحام موظفي الشركة لها..
والبقية معروفة..
كانت القضية تبدو له غامضةً منذ بدايتها، وتحمل مجموعةً هائلةً من الأسئلة، لم يحاول زميله، الذي أسندت إليه، أن يجيب أحدها..
لماذا زار «طارق»، «عادل»؟!
وما سِرّ إلحاحه في مقابلته؟!
وما ذلك الأمر العاجل الخطير، الذي أراد أن يخبره به؟!
ثم السؤال الأهم: لماذا قتله؟!
وكيف؟!
الزمن الذي قضاه «طارق»، في مكتب «عادل»، لم يكن يكفي لارتكابه الجريمة وإخفاء الجثة، خاصةً وأن موظفي المكتب قد أسرعوا إلى حجرة «عادل»، فور سماعهم تلك الجلبة فيها..
ودون إضاعة لحظةٍ واحدةٍ..
هذا ما أجمعوا عليه في شهادتهم، أمام الشرطة والنيابة والقضاء..
فحتى لو افترضنا أن «طارق» قتلَ «عادل»، فور أن أغلقت السكرتيرة الباب خلفه، سيبقى السؤال الأخطر..
أين الجثة؟!
الحجرة التي جمعت القاتل والقتيل، حجرة لها باب واحد، ونافذة واحدة، تطل على الشارع الرئيسي مباشرةً..
والجريمة المفترضة تمت في الواحدة والثلث ظهرًا..
فماذا فعل «طارق» بجثة «عادل»، لو أنه قتلَهُ بالفعل؟!
ومتى؟!
الدقائق العَشْر كلها لم تكن تكفي لإخفاء الجثة، بحيث يعجز فريقٌ كاملٌ عن العثور عليها، بعد تفتيش المبنى كله..
فماذا حدثَ بالضبط؟!
ماذا؟!

فجأةً، وعند تلك النقطة، انتفض جسده كله في عنفٍ، كاد يفقد معه السيطرة على عجلة القيادة، وهو يحدِّق في مرآة السيارة الداخلية..

فهناك، وعلى المقعد الخلفي، كان يجلس رجل، له وجهٌ مألوفٌ..

رجل لم يكن حتمًا داخل السيارة، عندما انطلق بها «جمال»..

كان الدكتور «رأفت فهمي»..

شخصيًا.

* * *

الفصل السادس

على الرغم من صعوبة الموقف، وقف الرائد «سامي» ثابتًا، أمام مدير الأمن، الذي بدا شديد الصرامة، وهو يسأله:
- لماذا لحقت بالعقيد «جمال»، عند مغادرته المبنى؟!
أجابه «سامي» في هدوءٍ، لم يدرِ هو نفسه كيف حصل عليه:
- سيادة العقيد «جمال» أستاذي، ومن الطبيعي عندما آراه يغادر المبنى غاضبًا، أن ألحق به؛ لسؤاله عن سر غضبه.
التفت مدير الأمن إلى أحد الضباط، الذي أبدى حركةً غيرَ ذات معنى واضح، فعاد مدير الأمن إلى «سامي»، يسأله في صرامةٍ أكثر:
- وبمَ تبرِّر اختفاء ملف قضية «طارق بشير»، عقب لحاقك به، وأنت تحمل حقيبتك؟!
هزَّ «سامي» كتفيه، قائلاً بنفس الهدوء، الذي أدهشه شخصيًا:
- ولماذا أحتاج إلى تبرير؟! الملف لم يكن في عُهدتي الشخصية.
انعقد حاجبا مدير الأمن في غضبٍ وهو يقول في حِدَّةٍ:
- أنت هادئ أكثر مما ينبغي.
سأله «سامي» في حذرٍ:
- وما الذي يُفترَض أن أكون عليه؟!
أجابه الضابط الآخر:
- أي ضابط، يوجَّه إليه مثل هذا الاتهام، يُصاب بالتوتر على الأقل.
لم يلتفت إليه «سامي»، وهو يجيب:
- هذا لو أنه لديه بعض الشك في براءته.
تبادل الضابط مع مدير الأمن نظرةً صامتةً، قال بعدها هذا الأخير:
- فليكن أيها الرائد.. لقد أمرت بإجراء تحقيق مكثَّف، حول واقعة اختفاء الملف، وأعدك بأنه لو ثبت تورُّطك، بأي حالٍ من الأحوال، في هذا الأمر، فستتمنى لو أنك لم تدخل كلية الشرطة من الأساس..
اعتدل «سامي» في وقفته، وهو يقول في حزمٍ:
- هل من أوامرَ أخرى؟!
بدا الغضب واضحًا على ملامح مدير الأمن وصوته، وهو يقول:
- كلَّا... يمكنك الانصراف الآن، ومحظور عليك، منذ هذه اللحظة، أن تجري أيَّةَ تحقيقات بشأن هذه القضية.. أهذا مفهوم.
أدَّى «سامي» التحية، وهو يقول:
- باتأكيد يا سيِّدي.
ولم يكَد يغادر الحجرة، حتى قال الضابط الآخر في ضيقٍ:
- أنا واثقٌ من أنه من سرق الملف.
أجابه مدير الأمن في صرامةٍ:
- لا يمكن اتهامه، بدون دليلٍ واحدٍ على الأقل.
قال الضابط في توتر:

- أنا واثق من أننا لو لحقنا بالعقيد «جمال»، فسنجد الملف بحوزته.
صمت مدير الأمن قليلاً ليدرس الأمر في رأسه، ثم قال في صرامةٍ:
- خذ اثنين من مساعديك، واذهب إلى منزله فورًا.
ثم استمالت صرامته إلى توترٍ بالغٍ، وهو يردف:
- فمن الواضح أن هذه القضية ستَحمِل إلينا الكثير من المتاعب.. الكثير جدًّا.
في نفس اللحظة التي نطقها، كان «سامي» يجلس خلف جهاز الكمبيوتر في مكتبه، يراجع تحريات البحث الجنائي حول واقعة «طارق بشير»..
لم يكن البحث الجنائي قد توصَّل إلى أي شيء فعليًا، ولكنه لم يجد أمامه سوى «طارق»..ولهذا تم اتهامه..
وقصة «طارق» لم تكن مقنعةً أبدًا، لكل من قام بالتحقيق معه؛ إذ لم يكن هناك معنى لأن يُصَّر على مقابلة شخصٍ لا يعرفه، ولأسبابٍ لا يعرفها..
والشرطة مثل النيابة والقضاء، تحتاج إلى أن تفهم الأسباب..
ولم تكن لدى «طارق» أيَّةُ أسباب..
حار في هذا الأمر لحظاتٍ، وهو يراجع كل الأحداث والوقائع، وشهادات الشهود..
ومع كل سطر يطالعه، كانت حيرته تزداد..
وتزداد..
وتزداد..
وفي تَوتُّرٍ، تراجَعَ في مقعده، وأخذ يتمتم مُحدِّثًا نفسه:
- ماذا لو سرنا على منهج سيادة المفتش، وافترضنا أن «طارق» صادقٌ فيما قال، وأنه بالفعل يجهل ما دفعه إلى هذا، فما الذي يمكن أن يوصلنا هذا الافتراض إليه؟!
درس كل الاحتمالات المنطقية في ذهنه، ولكنها ارتطمت كلها في النهاية بأمورٍ يعجز أيُّ عقل عن تفسيرها..
وأهم تلك الأمور وأخطرها، اختفاء جثة «عادل إبراهيم»..
فحتى لو افترض، كما افترض المحقِّق الرئيسي أن جهةً منافِسةً، قد استأجرت «طارق» هذا، كقاتلٍ مُحتَرفٍ للتخلص من «عادل»؛ فلماذا لم يحاول «طارق» أن يفعل هذا، في فيلا «عادل»، أو خلال انتقاله فيها أو إليها؟!
لماذا اختار مكانًا يكتظ بالشهود؟!
وكيف ارتكب جريمته؟!
وفقًا لتحريات البحث الجنائي، فالمتهم «طارق» شخص عادي، عملَ في دول الخليج لعدة سنواتٍ، ثم عاد منها بثروةٍ معقولةٍ، استهلكها كلها في شراء منزله الصغير، في تلك المدينة الجديدة..
وهو لا يملك أيَّ سجلٍ إجراميٍّ، ولا حتى مخالفات مرورية غير عادية..
أما «عادل»، فهو رجلُ أعمالٍ متميِّزٌ، ظهر على الساحة منذ بضع سنوات، وأنشأ شركته الخاصة، التي حقَّقت نجاحًا كبيرًا، في سنواتٍ قليلةٍ..
وكِلا الرجلين غير متزوِّجٍ، ويعيش وحيدًا في منزله..
وربما هذه هي الصلة الوحيدة بينهما، التي أمكن التوصُّل إليها، وفي رأيه أنها لا تساوي شيئًا في الواقع، بالنسبة لجريمة قتل بهذا الغموض..

أدرك لحظتها كم كان يشعر أستاذه بالتوتر، وعقله يعجز، مع كل ما بذَلَه، عن إيجاد لمحةٍ واحدةٍ، تقوده إلى شيءٍ من ضَوء الحقيقة، في هذه القضية..
ولقد كاد يشعر باليأس بحقٍّ، ويُنحِّي هذه القضية عن ذهنه، لولا أن جالت بخاطره لمحة مفاجئة..
البحث الجنائي ركَّز كل تحرياته، بطبيعة الحال، حول المتهم..
ولكن ماذا عن الضحية؟!
ففي رأيه، إن غموض «عادل» لا يقل، بأي حالٍ من الأحوال، عن غموض «طارق» نفسه..
شخصٌ ظهر فجأة على الساحة، مع ثروةٍ كبيرةٍ، وعبقريةٍ تكنولوجية فذة، جعلت شهرته تفوق الآفاق، خلال عامٍ واحدٍ، مما سمح له بتأسيس شركة (المستقبل لتكنولوجيا المعلومات)، والتي صارت اليوم الشركة الأولى في (مصر)، التي تتولى كُلّ العمليات التكنولوجية، في عددٍ من الشركات والفنادق الكبرى..
ومع نجاح شركته، وعبقريته الواضحة، التي اعترف بها حتى كبار علماء (مصر)، والخبراء في مضماره، ومع كم الشهادات، التي يزيِّن بها حجرة مكتبه، والتي حصل عليها من أكبر جامعات العالم، لم يتساءل حتى الأمن نفسه، عن مصادر ثرواته..
الكل تعامَلَ باعتبار أن بداية ظهوره وشهرته، هي البداية الفعلية..
وهذا أكبر خطأ..
في رأيه على الأقل..
عند هذه النقطة، قرَّر الانتقال إلى سجلات الداخلية، بحثًا عن بدايات «عادل إبراهيم» الفعلية..
بيانات رقمه القومي، تُشير إلى أنه ينتمي إلى قرية، في عمق جبال مدينة (قنا)، وأنه قد تلقَّى الشَّطر الأوَّل من تعليمه الأساسي، في مدرسة القرية، ثم أكمله في مدارس مدينة (قنا)، قبل أن يحصل على شهادة الثانوية العامة، بمجموع أهَّلَه للالتحاق بكلية الهندسة، في مدينة (أسيوط)، حيث تخرَّج منها بامتيازٍ، وسافر بعدها لاستكمال دراسته، في الولايات المتحدة الأمريكية، التي عاد منها بالثروة والعِلم معًا..
ولكن صورته بدت، وكأنها لا تتفق مع هذه المعلومات..
لقد كان أبيض البشرة، رماديَّ العينين، أنيق الملبَس، على نحوٍ أثار الشك في نفس «سامي» لحظات، في أنه ابن قرية بسيطة، مدفونة وسط جبال الصعيد، إلاَّ أنه لم يلبث أن طرح ذلك الشك عن ذهنه، واعتبره في أعماقه شكًا عنصريَّ النزعة، لا يتفق مع قواعد البحث الجنائي السليم.
ولكن هذا لم يمنعه من التوقُّف بعض الوقت، أمام اسم تلك القرية، التابعة لمحافظة (قنا)..
ومعها، طرح على نفسه سؤالاً جديدًا..
لماذا لا يبدأ بحثَه عن الحقيقة هناك..
في قلب الصعيد؟!
هناك، حيث ما زالت تسيطر بعض النزعات القبِلَية البدائية، التي قد تدفع بعضهم للانتظار سنواتٍ وسنواتٍ للثأر لشخصٍ ما..
أو من شخصٍ ما..
ربما كان سفر «عادل» إلى الولايات المتحدة، وسيلة لجأ إليها كبيرُ عائلته؛ لإبعاده عن لعبة ثأر قديمة..
وهنا قد يكون لمصرعه علاقة بذلك الثأر.. إن وُجِدَ..
وهذا احتمالٌ كبيرٌ..

وأقرب إلى المنطقية..
ربما لا يجيب عن غموض اختفاء الجثة..
ولكنه يضع الدافع للقتل..
وهذه نقطة بداية جيدة..
نقل بيانات الرقم القومي، واسم القرية إلى ملف خاص على هاتفه المحمول، وفكَّر في الاتصال بأستاذه؛ لينقل إليه نظريته، ولكنه خشي أن يكون هاتف أستاذه مراقبًا، فقرَّر أن يَدخِّر هذا، حتى يلتقي به في التاسعة مساءً، وعندما ألقى نظرةً على ساعة يده، أدهشه أنه قد استغرق ثلاث ساعات كاملة في بحثه، دون أن يشعر، وأن عقارب الساعة قد اقتربت من الثامنة، مما يعني أنه عليه أن يتحرَّك فورًا، إذا أراد الوصول في موعده..
بدأ يلملم أشياءه في سرعةٍ، عندما دخل الضابط، الذي التقاه في مكتب مدير الأمن إلى مكتبه، وسأله في صرامة:
- إلى أين؟!
أجابه «سامي» بالصرامة نفسها:
- ليس هذا من شأنك، ولا تنسَ أبدًا أننا برتبة واحدة، وأنني أسبقك بشهرٍ كاملٍ، و..
قاطعه زميله في صرامةٍ أكثر:
- أين العقيد «جمال»؟!
رفع عينيه إليه، في دهشةٍ حقيقيةٍ، وهو يقول:
- المفترض أنه في منزله الآن.
أجابه زميله في حِدَّةٍ:
- أنت تعلم أنه ليس كذلك، وأنا واثق من أنك تعلم أين هو بالتحديد.
بدأ القلق يتسلل إلى نفس «سامي»، وهو يسأله:
- ماذا هناك بالضبط يا «علي»؟!
أجابه الرائد «علي»، في عصبية واضحة:
- إنه لم يصل إلى منزله قَطُّ، بعد انصرافه من هنا، ولم يصل حتى إلى أيِّ مكانٍ آخر معروفٍ.
تضاعف قلق «سامي»، مما جعله يهتف:
- أخبِرني ماذا هناك بالضبط؟
أجابه «علي»، وعصبيته تتزايد:
- لقد وزَّعْنَا نشرةً عاجلةً، بأوصاف سيارته، وتم العثور عليها بالفعل، في منطقة مهجورة، بالقرب من (حلوان).
هتف «سامي»، وقد بلغ قلقه مبلغه:
- مهجورة؟! أين ذهب إذًا.
رفع «علي» عينيه إليه، وقال بصوتٍ حمل كل توتره وانفعاله:
- لقد اختفى.. اختفى تمامًا..
وهوى الخبر على رأس «سامي» كالصاعقة..
أو أشدّ هولاً.

* * *

الفصل السابع

منذ أن التحق بأكاديمية الشرطة، لم يشعر «سامي» بالتوتر قَطُّ، مثلما شعَرَ به، وهو يدورُ حولَ سيارة «جمال»، ويفحصها من كل الزوايا، في حين يقومُ رجال المعمل الجنائي بعملهم..
كان من الواضح أن قائدها لم يتركها بإرادته، فقد ظل مفتاحها داخلها، على الرغم من كونها مغلقةً من الداخل، وكان ناقل الحركة فيها على وضع الانطلاق، وخزانها شِبهُ ممتلئ بالوقود..
وعلى الرغم من الهمة، التي يعمل بها رجال البحث الجنائي، لرفع البصمات من داخل السيارة، والبحث عن أيَّةِ أدلة أخرى فيها، فقد بدا له أنَّ لا أحدًا يبذل ما يكفي من الجهد، حتى إنه هتف بالضابط، الذي وصل إلى منطقة الحادث أولاً:
- قل لي بالله عليك..كيف يمكن لرجل أن يغادر سيارته، وهي مغلقةٌ من الداخل؟!
أجابه الضابط، في حيرةٍ تفوق حيرته:
- بل قل لي أنت، كيف يمكن أن يغلقها من الخارج، وهذا الطراز الحديث من السيارات، لا يمكنك أن تغلقه من الخارج، ما دام مفتاحها مكانه؟!
زادت العبارة من حيرته، وعاد يحدِّق في السيارة بكل دهشته وتوتره، قبل أن يسأل مرةً أخرى:
- هل رأى أحدُ الشهود شيئًا؟!
هزَّ الضابط رأسه نفيًا، قبل أن يُجيبَ:
- المنطقة شِبه مهجورة كما ترى، ولقد عثرت واحدة من دوريات الشرطة على السيارة هنا، بعد توزيع نشرة عاجلة بأوصافها، وأدهشهم موقفها كما أدهشنا، ولكنهم أبلغوا عن الأمر فورًا، وهناك حملة الآن، لاستجواب سكان المناطق المجاورة، لعلَّ أحدهم قد رأى شيئًا.
غمغم «سامي»:
- ولم تجدوا شاهدًا واحدًا بَعدُ؟!
هزَّ الضابط رأسه نفيًا مرة أخرى، وهو يجيب:
- من الواضح أن أحدًا لم يرَ شيئًا.
وثبَتْ فكرةٌ إلى ذهن «سامي» فجأةً، فسأل في لهفةٍ:
- وماذا عن آثار الأقدام حولها؟!
بدا الضابط أشد حيرة، وهو يجيب:
- رجال الدورية أكَّدوا أنه، بخلاف آثار أقدامهم، لم تكن هناك أية آثار أقدام أخرى، عندما وصلوا إلى هنا.
هتف «سامي» في عصبية:
- ولكن هذا مستحيل.. إنه لم يتلاشَ داخل سيارته حتمًا.
تلفَّت الضابط حوله في توتُّرٍ، وهو يغمغم:
- مَن يدري؟!
تلك الكلمات فجَّرت في نفس «سامي» رعبًا هائلاً..
ولمَ لا؟!
الغموض كله بدأ باختفاء «طارق بشير»، وكأنه قد تلاشى فجأةً..
ثم هناك تلك الواقعة، التي لا يذكرها سوى العقيد «جمال» وحدَه، عن ذلك الزائر الغامض، الذي تلاشى بدوره، دافعًا الزمن إلى الوراء..

فما الذي يعنيه كل هذا؟!
كان أمام لغز، أشبه بما يكون بروايات الخيال العلمي التي يعشق مطالعتها منذ حداثة أظفاره..
ولكن من يمكن أن يشاركه رؤيته هذه؟!
وحتى لو طبَّق نظرية أستاذه، فسيجدُ أنه من العسير عليه استبعاد المستحيلات؛ لأن كل ما حدث أشبه بالمستحيلات..
وكل خطوة، في هذه القضية العجيبة، تعني المزيد والمزيد من المستحيلات..
وقف ذاهلاً، يراقب ما يحدث، قبل أن يقول في حزمٍ تخلَّلَ توتره:
- لا بُدَّ من العودة إلى البداية.
لم يفهم الضابط ما قاله، فتساءَلَ:
- ماذا؟!
لوَّحَ «سامي» بيده في توترٍ، وهو يقول:
- لا عليك.. تابع التحقيقات هنا، وسأعطيك رقم هاتفي الخاص لتبلغني بأية تطورات فور حدوثها.
أتاه صوت «علي» من خلفه، وهو يقول في صرامةٍ:
- لا أظن أن هذا سيحدث.
التفت إليه في حركةٍ حادَّةٍ، فتابعَ «علي»، وهو يتجه نحو السيارة:
- يبدو أنك قد نسيت أنه من المحظور عليك التدخُّل في هذه القضية.
قال «سامي» في عصبيةٍ:
- المفترض أن هذه قضية جديدة.
أجابه «علي» وهو ينحني لفحص السيارة:
- هراء.
ثم اعتدل، والتفت إلى الضابط، قائلاً بكل صرامة:
- أيَّةُ تطوُّرات ستبلغني بها وحدي.. هل تفهم.. وحدي.
رمقه «سامي» بنظرة عصبية غاضبة محنقة، ثم اندفع نحو سيارته، وانطلق بها مبتعدًا، وذهنه يرسم خطة العمل القادمة..
من حُسنِ حظه أنه لم يكن قد تقدَّمَ بطلب سحب إجازته بَعْدُ، عندما استدعاه مدير الأمن إلى مكتبه، فور عودته من سيارة «جمال»..
هذا يعني أنه يستطيع الحصول على الإجازة، اعتبارًا من هذه اللحظة..
أدار مِقوُد سيارته، منطلقًا نحو منطقة «العجوزة»، حيث مستشفى الشرطة، وهو يدرس الموقف مرة أخرى في ذهنه..
هذه القضية تعلَّقَت كلها بالاختفاء، بدءًا من اختفاء جثة «عادل إبراهيم»، وحتى اختفاء العقيد «جمال»، مرورًا باختفاء «طارق بشير» نفسه، أثناء تنفيذ حكم الإعدام فيه..
وهذا يعني أنه لم يعد لديه شهود..
باستثناء «فارس حمدي» وفريقه..
راح يرتب خطواته التالية، وهو ينطلق بسيارته، حتى وصل إلى مستشفى الشرطة، فأسرع على الفور إلى حجرة «فارس»، الذي كانوا قد أزالوا الضمادات عن عينيه منذ لحظاتٍ، والذي لم يكد يرَه، حتى هتف في توتُّرٍ:
- ماذا تريدون منِّي؟! لقد أخبرتكم بكل شيء.

تمالك «سامي» أعصابه، وهو يجذب مقعدًا، ويجلس إلى جوار فراشه، ويبذل قصارى جهده للتظاهر بالهدوءِ:
- لا عليك يا «فارس».. إنما أتيت للاطمئنان عليك، وعلى أفراد فريقك فحسب.
رمقه «فارس» بنظرة شكٍّ، قبل أن يزفر قائلاً:
- حمدًا لله، فلست أرغب في استعادة تلك اللحظات الرهيبة، بأيِّ حالٍ من الأحوال.
ربَّت عليه «سامي» مُهدئًا، وتراجَعَ في مقعده، ليرسم على وجهه ابتسامةً، ويغمغم:
- أما زلت تُصرّ على أن أرواح الموتى هاجمتكم؟!
هتف «فارس» في عصبيةٍ:
- وماذا غيرها يمكن أن يطلق ضوءًا بهذا السطوع داخل مكان لا يحوي سوى مصباحٍ صغيرٍ واحدٍ؟!
هزَّ «سامي» كتفيه، وقال:
- ولماذا ستفعل أرواح الموتى هذا؟!
تلفَّت «فارس» حوله في رعبٍ، وكأنما خشي أن تسمع تلك الأرواح المزعومة الحديث فتعود إليه، وخفض صوته وهو يجيب مرتجفًا:
- للانتقام.. لا تنسَ أن حبل المشنقة، هو الذي انتزع أرواحَهُم جميعًا، في تلك الحجرة المشئومة.
هزَّ «سامي» كتفيه مرة أخرى، وحرَّك رأسه بما يوحي بعدم اقتناعه، قبل أن يقول، باذلاً كل جهده للسيطرة على انفعالاته:
- ألا يحتمل أن تكون ظاهرة طبيعية، مثل كرات البرق التي وصفوها قديمًا بأنها أرواح الموتى، ثم ثبت أنها تتكوَّن من تفريغ كهربيٍّ، خلال العواصف .([4])
بدا «فارس» غاضبًا، وهو يقول في حدَّةٍ:
- وهل سمعت عن مثل تلك الظاهرة من قبل؟!
مرَّت لحظات من الصمت، قبل أن يُجيبَ «سامي» في حزمٍ:
- كلَّا..
هتف به «فارس» ظافرًا:
- أرأيت..
كان من الواضح أن الرجل لن يضيف شيئًا إلى المعلومات المتوفرة لديه بالفعل، فقضى معه بعض الوقت في حوارات عادية، ثم تمنى له سرعة الشفاء، وغادر المستشفى عائدًا إلى سيارته..
ليست هذه هي البداية الحقيقية..
ولا حتى لحظة اختفاء «طارق»..
وليست أيضًا لحظة اختفاء «عادل»..
البداية الحقيقية تكمن حتمًا هناك..
في تلك القرية التي نشأ فيها «عادل»..
قرية (الهو)، التابعة لمركز (نجع حمادي)، في محافظة (قنا)..
قبل أن يتوقَّف أمام منزله، كان قد اتخذ قراره، بأن ينطلق إلى محافظة (قنا)، مع أولى نسمات الصباح..
كان يوقف محرِّك سيارته، عندما انطلق رنين هاتفه الخاص، فاختطفه في لهفة، هاتفًا:
- هل من جديدٍ؟!

أتاه صوت ذلك الضابط عند سيارة «جمال»، وهو يقول في صوتٍ خافتٍ مضطربٍ:
- لم يكن من المفترض أن أجري هذا الاتصال، ولكننا عثرنا على شاهدٍ عيانٍ.
هتفَ «سامي» بكل انفعاله:
- حقًا؟!
ولكن الضابط تابعَ في سرعةٍ، وكأنما يريدُ أن يلقي كل ما لديه دفعةً واحدةً، قبل أن ينتبه إليه أحدٌ:- الرجل كان يرتجف خوفًا، وهو يُدلي بشهادته، ورفض في استماتة مجرَّد الاقتراب من السيارة، أو حتى من مكانها.
سأله «سامي» في لهفةٍ:
- ماذا رأى بالضبط؟!
أجابه الضابط بنفس السرعة:
- قال إن السيارة بدت له خالية في البداية، ولقد أدهشه أن صاحبها قد تركها في هذه البقعة المهجورة، وعندما اقترب منها، ظهر داخلها ضوءٌ أزرقُ باهتٌ، كشف له عن وجود شخصين، أحدهما يجلس خلف مقعد القيادة، والآخر على المقعد الخلفي، ثم اختفى الضوء في سرعة، فعاد يقترب منها، متصوِّرًا أنَّ من بداخلها قد يبحثون عن مساعدةٍ ما، ولكن...
صمت الضابط لحظةً، فهتف به «سامي» يستحثه:
- ولكن ماذا؟!
بدا صوت الضابط مرتجفًا، وهو يُجيبُ:
- ولكنه وجدَها خاليةً تمامًا.
ردَّدَ «سامي»، في مزيج من الدهشة والانفعال:
- خالية.. ولكن كيف؟! ألم يَقُل أنَّ...
قبل أن يتم عبارته، سمع صوت زميله «علي»، على الجانب الآخر، وهو يقول في صرامة غاضبة:
- مع مَن تتحدث؟!
وهنا، أنهى الضابط المحادثة، وقد ترك خلفه قطعةً جديدةً من اللغز..
قطعة أكثر غموضًا..
ألف مرَّةٍ.

* * *

الفصل الثامن

لم يتمالك الرائد «علي» نفسه من العصبية والتوتر، على الرغم من وقوفه أمام مدير الأمن، قائلاً:
- ذلك الضابط أخبره بما قاله الشاهد المأفون، على الرغم من أنني أمرته بعدم إبلاغ أي شخصٍ سواي بالأمر.
فاجأه رَدُّ مدير الأمن، الذي أجاب في بطءٍ:
- لا بأس.
حدَّق فيه الرائد «علي» في دهشةٍ بالغةٍ، فتابع مدير الأمن، مستعيدًا صرامته المعتادة:
- لو أنه يسعى وراء الحقيقة، فهذا ما نسعى إليه كلنا.
قال «علي» متوترًا:
- ولكن هذا يتعارض مع أوامرك يا سيَّدي، ألم تقل إنه...
قاطعه مدير الأمن، بنفس الصرامة:
- اسمعني جيدًا.. إننا نواجه مجموعةً من الأحداث الغامضة، التي ستعجز وسائلنا التقليدية حتمًا عن كشفها، وكلما توغَّلنا في الأمر، ازداد الغموض، بدلاً من أن تنكشف الحقائق، وهذا أمرٌ مزعِجٌ للغاية، وعلى الرغم من أنَّ الرسميات تُحتِّم اتخاذ قرارات معينة، إلا أن الوصول إلى الحقيقة، وهو الغرض الأسمى، قد يحتم تجاوزاتٍ غير محدودة.
قال «علي» في عصبية:
- ولكن هذا سيتعارض مع عملي.
هزَّ مدير الأمن رأسه وهو يشير بيده، قائلاً:
- على العكس.. أنت ستواصل تحقيقاتك بصفةٍ رسميَّةٍ، وإن كنت أجهل كيف ستورد مثل هذه الأمور في تقاريرك، وسنغض البصر بعض الوقت عن «سامي»، ونتركه يواصل تحرياته، بصفةٍ غير رسمية؛ لتسير الأمور في خطين متوازيين، يسعيان خلف هدفٍ واحدٍ.
غمغم «علي» في غضبٍ:
- الخطوط المتوازية لا تلتقي أبدًا، مهما امتدت([5]).
أشار مدير الأمن بسبَّابته، قائلاً في حزمٍ:
- إلا في حالتنا هذه؛ لأن الهدف في النهاية واحدٌ.
ثم ارتكن براحتيه على سطح المكتب، مستطردًا بمنتهى الحزمِ، وهو يتطلع إلى عيني «علي» مباشرةً:
- الحقيقة.
صمت «علي» لحظاتٍ، وقد أربكه موقف مدير الأمن، ثم لم يلبث أن تمتم:
- ماذا أفعل مع الرائد «سامي» إذًا؟!
أجابه مدير الأمن في سرعةٍ:
- أُغضُضْ بصرك عما يفعله، وتظاهَر بأنك لا تراه، وسيمضي كل شيء على ما يرام.
لم يكن هذا يرضي «علي» أبدًا، إلا أنه لم يملك سوى أن يُغمغم:
- كما تأمُر يا سيِّدي.
في نفس اللحظة التي نطقها، كان «سامي» يصل بسيارته إلى حيث ينتظره ذلك الضابط الآخر، بصحبة الشاهد الوحيد، الذي يبدو أن ما شاهده قد هزَّ كيانه كله؛ إذ كان لا يزال يرتجف ارتجافةً

بدت واضحة في يد «سامي»، وهو يصافحه قائلاً:
- اهدأ يا حاج.. إننا لا نُريدُ بك شرًا.
أجابه الرجل، بصوتٍ لا يقِلُّ ارتجافًا عن يدِه:
- لستُ أخشاكم يا ولدي، فلدي ابنٌ مثلكم، يعمل في شرطة المرَافِق، ولكن..
لم يتم عبارته، فغمغم الضابط الآخر:
- إنه يؤمن بأنَّ ما شاهده كان عملاً من أعمال الجن والعفاريت..
صمت «سامي» لحظةً وكأنما يخشى تأييده للفكرة، ثم عاد يلتفت إلى الرجل، قائلاً:
- أأنت واثقٌ من أن ما رأيته لم يكن وهمًا، أو خداعًا بصريًا يا حاج؟!
بدا الرجل عصبيًا منزعجًا، وهو يقولُ:
- ألا تصدقونني؟!
ربَّت «سامي» على كتفه، في محاولةٍ لتهدئته وهو يمنحه ابتسامةً مطمئِنَةً، قائلاً في صوتٍ مُنخفِضٍ؛ ليوحي للرجل بالأُلفة:
- بل نصدِّقك تمامًا يا حاج، ولكن كثيرًا ما تخدعنا أبصارُنا، مع انعكاس بعض الضوء، أو...
قاطعه الرجل في توترٍ:
- المنطقة مهجورة، ولا يوجد مصدر لأي ضوءٍ، باستثناء مصابيح الشارع الباهتة، وأنا أتمتع بنظرٍ جيدٍ، على الرَّغم من عمري، و...
قاطعه «سامي»، وهو يفكر في عمقٍ:
- إذًا فأنت واثق مما رأيته.
أجابه الرجل في حزمٍ:
- تمام الثقة.
ربَّت «سامي» على كتفه مرةً أخرى، وقال بابتسامةٍ باهتةٍ:
- أشكر لك تعاونك معنا يا حاج.
تردَّد الرجل لحظةً قبل أن يسأله في حذرٍ:
- معذرة يا حضرة الضابط، ولكن هل أصبحت الشرطة تهتم بأمور الجن والعفاريت في أيامنا هذه؟!
بدت الدهشة على وجه الضابط الآخر، ولكن «سامي» ابتسم، وعاد يربِّت على كتف الرجل، قائلاً:
- شكرًا يا حاج.
انصرف الرجل حائرًا؛ لأنه لم يحظَ بجواب سؤاله، في حين غمغم الضابط الآخر، في قلقٍ ملحوظٍ:
- هل تصدِّقه؟!
أجابه «سامي» في اقتضابٍ:
- نعم.
بدت الدهشة أكثر على الضابط، وأطلَّت من صوتِه، وهو يقول:
- ولكنه قولٌ يفتقر إلى أبسط قواعد العقل والمنطق.
أطلق «سامي» زفرةً متوتِّرةً، قبل أن يغمغمَ:
- الواقع أنني، ومنذ بدأت هذه القضية، لم أعد أدري أين دور العقل والمنطق فيها.
ثم التفت إلى الضابط، مُردِفًا في اهتمامٍ:

- وبمناسبة الحديث عن المنطق.. ألديك أسبابٌ معينة لتعاونك معي على هذا النحو، على الرغم من الأوامر التي تلقيتها بالعكس؟!
انعقد حاجِبا الضابط، وهو يقولُ:
- عندما وصلت إلى هنا كنت شديد الاهتمام بالأمرِ على عكس الرائد «علي»، ثم إنك أخبرتني، أن العقيد «جمال فتحي» أستاذك، وأنك كنت مساعِدَه في القضية التي اختفى خلال التحقيق فيها.
تساءلَ «سامي» في شكٍّ:
- أتجد هذه دوافع قوية؟!
بدا الضيق على وجه الضابط، وهو يجيبُ في حزمٍ:
- اسمع يا سيادة الرائد.. عندما التحقت بالشرطة، كان مثَلي الأعلى الوحيد الذي أصبو إليه، هو سيادة العقيد «جمال»، وعندما تمَّ إلحاقي بإدارة البحث الجنائي، بدا لي أنني أقترب من تحقيق حُلمي، بأن أعمل يومًا معه، وعندما يكون أوَّل لقاء لي به هو واقعة اختفائه؛ فأنا مستعد للتعاون مع الشيطان نفسه.. لو أن هذا سيعيده.
قالها في حرارةٍ وحماسٍ، جعلا «سامي» يتطلَّع إليه لحظاتٍ في صمتٍ، ثم يسأله:
- ما اسمك أيها النقيب؟!
شدَّ الضابط قامته، وهو يجيب في اعتدادٍ:
- «أنور وصفي».. معاون مباحث القسم.
مال «سامي» نحوَه، وسأله في حزمٍ:
- هل أنت مستعد للتعاون معي حتى النهاية.
أجابه «أنور»، في سرعةٍ وحسمٍ:
- بكل تأكيد.
سأله «سامي»، في حزمٍ أكبر:
- مهما كان الثَّمَن؟!
أجابه بنفس السرعة:
- ومهما كانت التضحيات.
صمت «سامي» لحظة، تفرَّس خلالها ملامحه في إمعانٍ، قبل أن يقول في بطءٍ حازمٍ:
- وماذا لو أخبرتك أنني أعمل بصفةٍ غير رسمية؟!
صمت «أنور» بدوره لحظةً أخرى، ثم تسلَّلت إلى شفتيه ابتسامةٌ وهو يجيب في خفوتٍ:
- سيجعل هذا الأمر أكثر يُسرًا.
مدَّ «سامي» يده ليصافحه، والتقت أيديهما، و...
وفجأةً، شعر كلاهما وكأن دفعةً من هواءٍ باردٍ قد أصابتهما..
وكانت عقارب الساعة تشير إلى تمام منتصف الليل، وتلك المنطقة المهجورة أو شبه المهجورة غارقة في ظلامٍ مُخيفٍ، إلا من بصيص من أضواء مصابيح الشارع البعيدة، وبرودة ذلك الهواء لم تكن تتفق مع الطقس من حولهما، مما دفع كليهما إلى الالتفات إلى مصدره، دون أن يُفلِتا أيديهما، و..
وفجأةً، أشرقت تلك الشمس دون مُقدماتٍ..
وغمرهما معًا ضوءٌ شديدُ السطوع، ألهب عيونهما في شدةٍ..
وشعرا بأنهما يسقطان عميقًا..

في شمس منتصف الليل .

* * *

الفصل التاسع

فجأةً، استعاد «سامي» شعوره بما حوله..
لم يدرِ حتى متى فقد هذا الشعور..
لقد سطعت تلك الشمس في وجههِ بغتةً، وشعر بأنه يسقط في هاوية عميقة، وأفلت يدَ النقيب (أنور)، الذي كان يصافحه..
ثم راح يسقط..
ويسقط..
ويسقط..
ثم فجأة، توقَّف سقوطه..
وأفاق..
كان المكان من حوله كما تركه تمامًا..
نفس المنطقة المقفرة.. شبه المجهولة، شبه المظلمة..
وكانت أضواء الشارع ما زالت تأتي من بعيدٍ..
مع اختلافٍ واحدٍ..
لم يكن النقيب «أنور» هناك..
لقد اختفى..
تمامًا..
اتسعت عينا «سامي»، وهو يتلفَّت حوله، في ذهولٍ تامٍ، أضاف بُعدًا مخيفًا إلى ذلك السكون الذي يخيم على كل ما حوله..
وبكل عصبيته وذهوله، دار بعينيه دورةً كاملةً فيما حولَه..
كان كل شيء يمتد إلى مسافة بعيدة..
وليس هناك أدنى أثرٍ للنقيب «أنور»..
بل لم يكن هناك حتى أثرٌ لقدميه، على الرمال المحيطة به، في تلك المنطقة..
كان وكأنه لم يوجد أبدًا..
أو أن كل هذا مجرَّد حُلمٍ..
أو كابوس..
عاد يتلفَّت حوله مرةً ثانيةً، قبل أن ينتبه إلى أمرٍ ضاعفَ من دهشته وذهوله..
لقد اختفت سيارته أيضًا..
وكذلك سيارة «أنور»..
انتفض جسده على الرغم منه وهو يحاول استيعاب ما حدث..
ضوء شديد السطوع..
وشعور بالسقوط..
ثم اختفاء لكل شيء..
فما الذي يعنيه هذا؟!
شدة توتره لم تمنحه الصفاء الكافي؛ لفَهم الأمر أو استيعابه، ووجوده وحيدًا في هذا المكان ضاعفَ من توتره، و..

وفجأةً، ارتفع رنين هاتفه المحمول، فانتفض جسده كله في عنفٍ مع رنينه، والتقط الهاتف في سرعةٍ، ليرتفع حاجباه في ذهولٍ أكثَرَ، مع الاسم الذي حمَلَتْه شاشةُ الهاتف الحديث..
كان اسم العقيد «جمال»..
المفتش «جمال فتحي»، رئيسه، الذي اختفى في ظروفٍ غامضةٍ..
وبكل اللهفة، ضغطَ زِر الاستماع وهو يهتف في انفعالٍ:
- سيادة العقيد.. أأنت بخيرٍ؟!
أتاه صوتُ العقيد «جمال»، وهو يقول في صرامةٍ:
- بالتأكيد.. أي سؤال هذا؟! لماذا لم تأتِ في الموعد الذي أخبرتك به؟! لا بُدَّ لنا من معاينة مسرح جريمة الهرم الليلة.
حمل صوته كُلَّ دهشته وهو يغمغمُ:
- جريمة الهرم؟! لقد قُمنَا بمعاينة المكان بالفعل، منذ أسبوع، و...
قاطعه صوت «جمال»، وهو يهتف في غضبٍ:
- أسبوعٌ؟! أيُّ أسبوعٍ؟! ماذا أصابك أيها الرائد؟! هل أيقظتك من حُلمٍ ما أم ماذا؟!
ارتفع حاجِبَا «سامي» بكل دهشته، وهمَّ بقولِ شيءٍ آخرَ، و...
وفجأةً، سطع ذلك الضوءُ الرَّهيبُ مرةً أخرى..
وأشرقت شمس منتصف الليل ثانية..
ومرةً جديدةً، راح يسقط..
ويسقط..
ويسقط..
ثم ارتطم بالأرض في عنفٍ..
كان عقله يدور في شدةٍ، ولكنه أجبَرَ جفنيه على الانفراج؛ ليتطلَّع إلى ما حوله بكل دهشة الدنيا..
إنه ما زال في نفس المكان..
كل شيءٍ على حاله..
ولكن سيارته هناك..
وكذلك سيارة «أنور»..
و»أنور» نفسه، الملقى على مسافة أمتارٍ قليلةٍ منه، والذي نهض ومزيج من الذهول والذعر يملأ عينيه وهو يهتف:
- ما الذي حدث يا سيادة الرائد؟! أين ذهبت؟!
نهض «سامي» في صعوبةٍ، وهو يُغمغم:
- أين ماذا؟! أنت اختفيت من هنا بعض الوقت، و...
قاطعَهُ «أنور» في عصبية:
- أنا؟! إنه أنت مَن اختفى لحظاتٍ، ثم عدتَ فجأةً.
ثم ارتبك في شدةٍ، وهو يضيف:
- أم إن عقلي كان مشوشًا بعض الوقت.
لم يستطع «سامي» إجابته، وهو يقف على قدميه، ويراوده شعورٌ عجيبٌ بالإجهاد، وكأنه قد قطع الطريق عدوًا، من منزله إلى هنا، وغمغم:
- هذا ما نواجهه يا رجل.

سأله «أنور» بنفس الانفعال:
- وما هو؟! كل ما أذكره هو أن الشمس قد أشرقت في وجهينا فجأةً، فسقطت أرضًا، و...
لم يستطع إكمالَ حديثه، وبدا وكأنه يعاني من ذهنٍ مُشوَّشٍ بالفعل، فارتبك على نحوٍ مَلحوظٍ، جعل «سامي» يتمتم:
- لقد شعرت الآن بما شعر به سيادة العقيد في مكتبه.. الأمور تسير على نحوٍ عجيبٍ، وكأننا جزءٌ من فيلم سينمائي للخيال العلمي، فكل شيء غامضٌ، عجيب، لا يتناسب مع المعطيات التي عهدناها للحياة.
تمتمَ «أنور» بدوره في عصبية:
- أنت على حقٍّ.
التقط نفسًا عميقًا في محاولة لتهدئة نفسه الثائرة، ثم شد قامته، محاولاً استعادة سيطرته على نفسه قبل أن يسأل في لهجةٍ عسكرية:
- ما أوامرك الآن، يا سيادة الرائد؟!
أشار «سامي» بيده، وهو شِبهُ شاردٍ بأفكاره، وغمغمَ:
- لا داعي للرسميات، فأنا خارج العمل رسميًا.
جعلت كلماته «أنور» يسترخي في وقفته وهو يسأل في اهتمامٍ مَشوبٍ بالقلق:
- ماذا تريد منِّي أن أفعل؟!
مضت لحظاتٌ من الصمت، قبل أن يقول «سامي» في حزمٍ:
- أريدك أن تفحص المنطقة كلها مع مطلع الفجر.. ابحث عن أيَّة أسلاك مخفاةٍ تحت التراب أو أجهزة إليكترونية مندسة في مكانٍ ما.
بدا الاهتمام أكثر على «أنور»، وهو يسأله:
- هل تعتقد أنه هناك خدعة ما في الأمر؟!
أجابه في حزمٍ:
- لا يُمكِنُنا إهمال هذا الاحتمال.
عاد «أنور» يشد قامته، ويستعيد لهجته العسكرية، وهو يقول:
- كما تأمر يا سيادة الرائد.
بدا «سامي» أكثرَ شرودًا، وهو يقول:
- أما أنا، فأعتقد أنني سأبدأ مهمتي على الفور دون انتظار الصباح.
قالها، واستدار متجهًا نحوَ سيارته في حزمٍ، فهتف به «أنور»:
- إلى أين؟!
أجابه في حزمٍ شديدٍ:
- إلى نقطة البداية.
ثم التفت إليه نصف التفاتة، مضيفًا:
– إلى (الهو) .
تمتم «أنور» في دهشة:
- (الهو)؟! أي (هو)؟!
ولكن «سامي» لم يُجِبه، فقد كان داخل سيارته بالفعل، يدير محرِّكها، وهو يقول لنفسه:
- لا بُدَّ وأن أفهم ما يحدث.. لا بُدَّ.

ثم انطلق بسيارته متجهًا نحو طريق الصعيد..
كان فكره شاردًا، وهو يحاول تطبيق تلك القاعدة، التي طالما آمن بها رئيسه..
لو استبعد المستحيلات، فكل ما سيتبقى هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها..
ولكن المشكلة أن كل ما ارتبط بهذه القضية، يندرج تحت كلمة «المستحيلات» هذه..
كل ما حدث هو مستحيلٌ..!
من الناحية العلمية على الأقلِّ..
توقَّفَت أفكاره عند هذه النقطة، لتنتقل فجأةً إلى نقطة أخرى تبدو للوهلة الأولى..
وكأنه لا صلة لها بالأمر كله..
إلى روايات وأفلام الخيال العلمي..
فأكثر ما تعلَّمه من تلك الروايات والأفلام، هو أنه لا يوجد ما يُسمَّى بالمستحيلات العلمية فعليًا؛ لأنه مصطلح نطلقه، وفقًا لما بلغته علومنا..
فقط ما بلغته، حتى لحظة القولِ..
فذلك الكمبيوتر الصغير الدقيق، في هاتفه المحمول، كان منذ عشرين أو ثلاثين عامًا من المستحيلات العلمية، ولم يكن من الممكن أن تراهُ، إلا في أفلام الخيال العلمي..
ثم ها هو ذا حقيقة..
حتى خاصية اللمس في شاشته، والتي صارت أمرًا معتادًا الآن، كانت فيما مضى من صُنع الخيال..
وقراءاته في هذا المضمار تثبت هذا..
الغوَّاصة كانت خيالاً علميًا، في نهايات القرن التاسع عشر، عندما كتب عنها (فيرن)، ثم صارت أحد أقوى أسلحة الحروب، بعد مضي أقل من نصف قرنٍ..([6])
وكذلك الصاروخ..
والسفر إلى القمر..
بل والطيران نفسه..
كان القدماء يقولون: إنه لو أراد الخالق عزَّ وجلَّ لنا أن نطير لخَلَقَ لنا أجنحةً..([7])
ثم طرنا، بآلاتٍ صنعناها، وطوَّرناها، وقاتلنا وربحنا الحروب بها..
حتى الاختفاء، والسفر عبر الزمن..
عندما تحدَّث عنهما (ويلز)([8])، كانا مجرَّد خيال علمي، ثم صنع العلم حقيقة، منذ عام 1997م([9])
لا توجد إذًا مستحيلاتٌ عِلميةٌ..
يوجد قصور علميٌّ..
امتزجت هذه النقطة بالقضية نفسها، وبدأت تقود تفكيره إلى اتجاهٍ جديدٍ..
هل ما يحدث، بكل غموضه، هو حصيلة كشفٍ عِلميٍّ جديدٍ، لم يُفصَح عنه بعد؟!
أو سلسلة من تجارب، حول سلاح جديد؟!
ربما كان هذا هو التفسير..
ربما..!
لم تزده هذه الفكرة سوى غموضًا يفوق ما تحويه القضية من غموض، فهزَّ رأسَه في قوة، وهو يواصل انطلاقه بسيارته، نحو طريق الصعيد، و..

وفجأة.. أشرقت تلك الشمس شديدة السطوع في وجهه مرةً أخرى، وعلى نحوٍ أفقده سيطرته على عجلة القيادة بغتة وهو ينطلق بهذه السرعة..
ومع اضطراره لإغراق عينيه في شدةٍ، في مواجهة ذلك الضوء شديد السطوع، انحرفت به السيارة في حدةٍ..
وكان الارتطام عنيفًا..
إلى أقصى حدٍّ.

* * *

الفصل العاشر

شعر الرائد «علي» بتوتُّرٍ بالغ وهو يراجع ملف قضية اختفاء «طارق بشير» الغامض، في حجرة الإعدام، وراجع أقوال شهود العيان للواقعة، وأقوال خبير المعمل الجنائي «فارس» ورجاله، قبل أن يغلق الملف بحركةٍ حادةٍ، ويتراجع في مقعده، ويلتقط نفسًا عميقًا متوترًا وهو يغمغم في عصبيةٍ:

- ما معنى هذا كله؟!

بدا له الأمر أكثر غموضًا من ذي قبل، عندما أضاف إليه اختفاء المفتش «جمال»، وما رواه شاهد الواقعة الوحيد، والذي جعل الأمر يبدو أشبه بعالم الجن والعفاريت، وراح يعتصر عقله، محاولاً التوصُّل لتفسيرٍ واحدٍ للموقف كله..

أيُّ تفسير يقبله العقل..

أيُّ تفسير..!

ولكن الأمر بدا له أكثر استحالة، من أن يجد له أي تفسير منطقي، لذا فقد نهضَ من خلف مكتبه، وهو يقول لنفسه في عصبيةٍ شديدةٍ:

- ترى ماذا كان سيفعل المفتش «جمال»، لو أنه في موضعي هذا؟!

لم يكد يتم عبارته حتى ارتفع رنين الهاتف الداخلي على مكتبه، فانتفض جسده لحظةً، قبل أن يلتقط سمَّاعته، وهو يقول بنفس العصبية:

- أفندم.

فاجأه صوت مدير الأمن، وهو يقول في توترٍ:

- «علي».. تعالَ إلى مكتبي فورًا.

قالها، وأنهى المحادثة على الفور، كما اعتاد أن يفعل عندما يكون الأمر بالغ الخطورة، لذا فقد أسرع إليه «علي» على الفور وما إن دخل مكتبه حتى بادره مدير الأمن في عصبيةٍ:

- القضية تزداد غموضًا.

جفَّ صوته، وهو يسأله:

- ما الجديد؟!

لوَّحَ مدير الأمن بذراعه وهو يقول:

- عثروا على سيارة الرائد «سامي رضوان» مُحطَّمة، في طريق الصعيد.

سأله «علي»، وحلقه يزدادُ جفافًا مع الانفعال:

- ماذا أصابه؟!

أجابه مدير الأمن وهو يلتقط ورقة من على مكتبه:

- من الواضح أن السيارة قد انحرفت فجأةً لسببٍ ما، وارتطمت بصخرةٍ كبيرةٍ على جانب الطريق، وتحطمت مقدمتها تمامًا، كما فقدت إحدى إطاراتها.

سأله «علي» في لهفة:

- وماذا عن «سامي»؟!

صمت مدير الأمن لحظةً، قبل أن يجيب في عصبيةٍ:

- اختفى.

ارتفع حاجبا «علي» في دهشةٍ بالغةٍ، وغمغم:

- كيف؟!
زفر مدير الأمن في توترٍ، قبل أن يُجيبَ:
- لا أحد يعلم.. السيارة، على الرغم مما بها من إصاباتٍ، كانت تمامًا مثل سيارة العقيد «جمال»، مغلقة من الداخل، ولا أثر له داخلها.. لا توجد حتى بقعة دماء ناتجة عن الحادث.
زفرَ مرةً أخرى مستطردًا في عصبية:
- هذه القضية صارت مؤرقة إلى حدٍ مُخيفٍ.
حدَّقَ فيه «علي» لحظاتٍ، غير مصدِّقٍ لما يسمعه، ثم هزَّ رأسه، وكأنما ينفض عنها التوتر والحيرة، وقال:
- ولماذا طريق الصعيد؟!
أجابه مدير الأمن في سرعة، وكأنما كان ينتظر السؤال:
- ربما كان في طريقه إلى قرية «عادل إبراهيم».
غمغمَ «علي»:
- قتيل قضية «طارق».
أومأ برأسه، مجيبًا:
- بالضبط.. عندما اختفى «طارق»، راجعتُ ملف القضية، وأذكر أن القتيل كان من قرية تدعى (الهو)، في أعماق جبال مركز (نجع حمادي) في محافظة (قنا)، وأظن أن «سامي» كان في طريقه إلى هناك.
انعقد حاجبا «علي»، وهو يغمغم:
- آه... أراد الذهاب إلى أبعد نقطة بداية.
أشار إليه مدير الأمن، قائلاً في حزمٍ:
- بالضبط.. وهذا ما ستفعله.
ارتفع حاجبا «علي» في دهشة، ولكن المدير أكمل بنفس الحزم:
- ستستقل الطائرة بعد ساعة إلى (الأقصر)، ومن هناك ستحملك واحدة من سياراتنا إلى قرية (الهو)، وخلال الطريق، حاول أن تعرف من أين كان «سامي» ينوي البدء.
ظل حاجباه مرفوعين لحظة، ثم خفضهما وهو يتساءل:
- وماذا عن «سامي» نفسه؟!
لوَّح مدير الأمن بذراعه مرةً أخرى، وهو يقول:
- لقد وزعنا نشرةً بأوصافه، والمعمل الجنائي يقوم بفحص سيارته الآن، بحثًا عن أيَّةِ بصماتٍ أو دلائل، وسأبلغك بما يتوصلون إليه أوَّلاً بأوَّل....والآن هيَّا.. الطائرة لن تنتظرك.
استعاد «علي» كل هذا الحديث خلال الفترة التي قطعتها الطائرة، من (القاهرة) إلى (الأقصر)، وهناك كانت سيارة مديرية أمن (قنا) في انتظاره بالفعل، مع مدير مباحث المديرية، المقدِّم «شوقي»، الذي قال، والسيارة تنطلق بهما إلى (نجع حمادي):
- لست أدري ما الذي تتوقعون وجوده في (الهو) هذه..! إنها قرية صغيرة، في حضن الجبل، كما يقولون هنا، ومنذ تسلَّمت عملي في المحافظة، لم أسمع عن أية مشكلات فيها.
غمغم «علي»:
- نتوقَّع أن نجد فيها البداية.
سأله في اهتمامٍ:

- بداية ماذا؟!
صمت «علي» لحظة، ثم أجاب في بطءٍ:
- بداية ما يمكنك أن تُطلِق عليه اسم القضية الغامضة.
أدرك «شوقي» أن الأمر محاط بشيء من السرية، وإلا لما أرسلوا ضابط مباحث أقل منه رتبةً من (القاهرة)، وجعلته طبيعة عمله وخبرته يلزم الصمت، حتى بلغوا بداية الطريق إلى (الهو)...
كانت فعلاً كما وصفها المقدِّم «شوقي»...
فى حضن الجبل..
فقد بلغت بهم السيارة نقطة على الطريق الأسفلتي، ثم انحرفت منها إلى طريق ترابي نصف ممهَّد، يمتد وسط الصخور والحقول إلى نقطةٍ، لا يمكنك أن ترى في نهايتها إلا جبالاً ضخمةً، جعلتها المسافة تبدو باهتةً من بعيدٍ..
ولقد سارت السيارة لوقتٍ طويلٍ نسبيًا، على هذا الطريق نصف الممهَّد، حتى شعر «علي» وكأنهم يغوصون في حضن الجبل فعليًا..
ثم فجأةً، ظهرت القرية من بعيدٍ، وابتسم المقدِّم «شوقي»، وهو يقول:
- قبل أن أعمل هنا، لم أكن أتصوَّر أنه هناك قرية بهذا الاسم بالفعل، فعندما كنت صغيرًا، كنا إذا أردنا أن نصف مكانًا بعيدًا مقفرًا، نطلق عليه اسم (الهوّ).
تمتم «علي»، وهو يتأمَّل القرية من بعيدٍ:
- هذا صحيحٌ..
واصلت السيارة سيرها لدقائق خمس إضافية، قبل أن تعبر ساحةً تُرابيةً كبيرةً، إلى دار العمدة، الذي وقف في انتظارها بابتسامة عريضة، واستقبلهما بترحابٍ شديدٍ وهو يهتف:
- أي نورٍ هذا؟! «شوقي» باشا شخصيًا في بلدنا.. مرحبًا بك وبضيفك يا باشا.. لقد أعددنا طعام الغداء، وكنا في انتظاركما، منذ أخبرني معاون نقطة الشرطة بقدومكما.
صافحه «علي»، وهو يقول في حزمٍ:
- فيما بعد أيها العمدة.. فيما بعد.. لديَّ أوَّلاً بضعة أسئلة، أريد أن أطرحها عليك.
هتف العمدة في حزمٍ:
- لا حديث إلا بعد الغداء يا باشا.
حاول «علي» أن يعترض، ولكن «شوقي» ضغطَ يدَه، مغمغمًا ومحذرًا:
- هذه تقاليدهم.
صمت «علي» على مضضٍ، واضطر لقبول الدعوة، وإن أدهشه كرم الضيافة البالغ، والحفاوة التلقائية، التي أسرته بعض الوقت، إلا أنه لم يلبث أن استعاد طبيعة رجل المباحث الصارم، وهو يتناول معهم كوب الشاي الصغير في مندرة العمدة، فارتشف رشفة صغيرة، ثم سأله:
- هل تذكر واحدًا من أبناء القرية، يدعى «عادل إبراهيم» أيها العمدة.
أجابه العمدة في سرعةٍ وبساطةٍ:
- بالطبع يا باشا.. إنه ابن الشيخ «إبراهيم حمَّاد» رحمه الله.. لقد كنت أعتبره مثل ابني.
ثم تنهَّدَ، مردفًا:
- فليرحمه الله سبحانه وتعالى أيضًا.
مال «علي» نحوه، وهو يسأله:
- لقد تعلَّمَ في مدرسة القرية قبل أن ينتقل إلى (القاهرة).. أليس كذلك؟!

فاجأته نظرة الدهشة في عيني العمدة، وهو يغمغم:
- مدرسة القرية؟! (القاهرة)؟! .يبدو أنك تتحدث عن شخصٍ آخر، غير الذي كنا نعرفه يا باشا.
انعقد حاجبا «علي»، وهو يقول:
- لست أظن هذا.. الذى أتحدَّث عنه هو «عادل إبراهيم حمَّاد»، صاحب شركة تكنولوجيا المعلومات، والذي وُلِدَ وتعلَّم هنا، حتى المرحلة الـ...
قاطعه العمدة في دهشةٍ:
- تعلَّمَ هنا؟! المدرسة التي رأيتها، في مدخل القرية، مدرسة حديثة يا باشا، لم يمضِ على وجودها ثلاثة أعوام، ولم يتخرج منها أحدٌ بعد.
انتقلت الدهشة إلى «علي»، وهو يقول:
- ولكن شهاداته تقول عكس هذا.
بدت الحيرة على «شوقي»، الذي اكتفى بنقل بصره بينهما، في حين قال العمدة:
- إما أنها شهادات غير صحيحة، أو أن الشخص غير من نعرفه، فالوحيد هنا، باسم «عادل إبراهيم حمَّاد»، هو ابن الشيخ «إبراهيم»، وقد لقيَ مصرعه بلسعة عقرب، منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وهو بَعْدُ في السابعة من عمره.
ازداد انعقاد حاجبي «علي» في شدةٍ، وهو يغمغم:
- ولكن هذا مستحيل! لقد راجعت شهادة ميلاده بنفسي، وهي صادرة من الوحدة الصحية هنا.
ابتسم العمدة مشفقًا، وهو يقول:
- أيَّةُ وحدة صحية؟! في تلك الفترة، لم نكن نستخرج شهادات ميلاد أو وفيَّات، لأنه لم تكن لدينا وِحدةٌ صحية، ولم نكن نهتم بمثل هذه الأوراق الرسمية، وعندما كان أحد أبناء القرية يرغب في السفر خارج البلاد، كنا نقوم بتسنينه في القومسيون الطبي، حتى يمكننا أن نستخرج له جوازَ سفرٍ.
اتسعت عينا «علي»، وبدأ جسده كله يتفاعل مع الصدمة والمفاجأة ..
لقد راجَعَ شهادة ميلاد «عادل إبراهيم» بنفسه، على شاشة الكمبيوتر المركزي، وكانت بياناتها كلها صحيحةً، ومؤيَّدةً بالمستندات الرسمية، فكيف يُعقَل أن يكون كل هذا زائفًا؟!
كيف؟!
وكأملٍ أخيرٍ، مال يسأل العمدة:
- ألا يحتمل أن يكون هناك آخَرُ بنفس الاسم، غادر القرية منذ زمنٍ طويلٍ؟!
هزَّ العمدة رأسه في إصرارٍ، قائلاً في حزمٍ:
- مطلَقًا.
ثم مالَ نحوه بدوره، مكملاً:
- أنا أعرف كُلَّ من وُلِدَ هنا أو في الجوار، منذ خمسين عامًا، وقريتنا لم يوجد بها من يحمل اسم (عادل إبراهيم حمَّاد)، سوى المرحوم.
شعر «علي» بالأرض تدور من حوله..
يا لها من بداية مفاجِئة..!
القتيل «عادل إبراهيم»، هو في الأساس شخصية وهمية..
شخصيةٌ لا وجودَ لها..
من الطبيعي إذًا أن يختفي..
ولكن كيف؟!

الرجل كان يحمل شهاداتٍ دوليةً، وكانت له دائرة هائلة من المعارف، على كافة المستويات..
وشركته كانت أشهر شركات تكنولوجيا المعلومات، ولا زالت، وكل الأماكن الحيوية تعتمد عليها، وعلى تكنولوجيتها المتطوِّرة..
والرجل كان شهيرًا للغاية..
فهل من المعقول، بعد كل هذا، أن يكون زائفًا؟!
هل؟!
تراجَعَ ليسند رأسه إلى الجدار، وقد بدا له أنه سيسقط من فوق كتفيه، فسأله العمدة في قلقٍ:
- هل ترغب في أن تستريح قليلاً يا باشا؟!
حدَّق فيه «علي» لحظةً، وكأنه لا يراه، ثم انتفض فجأة، وكأنه يخرج من حُلمٍ ما، وقال في حزمٍ وهو يهب واقفًا:
- كلَّا...بل أريد أن أنصرف.
هبَّ العمدة واقفًا بدوره، وهو يقول في حرارةٍ:
- ليس قبل موعد العشاء
أجابه «علي» في صرامةٍ:
- كلَّا.. الواجب ينادينا أيها العمدة.. هيَّا يا سيادة المقدِّم.
لم يستطع «شوقي» مواصلة صمته، في طريق العودة، فسأله في اهتمامٍ:
- لقد باغتك ما حصلت عليه.. أليس كذلك؟!
أومأ «علي» برأسه، مغمغمًا:
- أكثر مما تتصوَّر.
مال «شوقي» نحوه، يسأله في اهتمامٍ:
- إنه أمرٌ يتعلق بجريمة القتل، التي لم تعثروا فيها على القتيل.. أهذا صحيحٌ.
أومأ «علي» برأسه إيجابًا في صمتٍ، فتابَعَ شوقي في حماسٍ:
- لقد تابعتُ أخبارها منذ فترة طويلة، وكانت قضية عجيبة، مليئة بالتعقيدات.
غمغم «علي»..
بدت الدهشة واضحةً، في ملامح «شوقي» وصوته وهو يقول:
- ولكن كيف؟! ألم تصدر المحكمة حكمًا نهائيًا بإعدام القاتل بالفعل؟!
تنهَّدَ «علي»، وغمغم بأسلوبٍ يوحي بأنه يريد إنهاء الحوار:
- ليت الأمر اقتصر على هذا.
لم ينتبه «شوقي» إلى أسلوبه وهو يسأله في إلحاحٍ:
- ماذا استجدَّ فيها ويستوجب إعادة فتحها بعد حكمٍ نهائيٍّ؟!
أجابه «علي» في اقتضابٍ، آملاً أن ينهي الحوار:
- الكثير.
همَّ »شوقي» بإلغاء سؤالٍ جديدٍ، لولا أن ارتفع رنين هاتف «علي» فجأةً، فاختطفه هذا الأخير من جيبه، وهو يقول في لهفةٍ:
- سيادة اللواء.. هل من جديد؟!
بدا صوت مدير الأمن مفعمًا بالانفعال وهو يقول:
- «علي».. مفاجأة لا يمكنك أن تتخيَّلَها .

سأله «علي» في لهفةٍ:
- هل عثرتم على «سامي»؟!
أجابه بنفس الانفعال:
- بل عثرنا على الدليل الأكيد، الذي يحسم براءة «طارق بشير»، من تهمة القتل.
انعقد حاجبا «علي»، وانتقلت إليه عدوى الانفعال وهو يسأل:
- أيُّ دليل؟!
بدا صوت مدير الأمن أكثر انفعالاً، وهو يجيب:
- القتيل.. «عادل إبراهيم».. شخصيًا.
واتسعت عينا «علي» عن آخرهما..
وخفقَ قلبه في عنفٍ..
فقد كانت الصدمة قويةً..
جدًا..

* * *

الفصل الحادي عشر

لم يرَ «علي» في حياته كلها شخصًا، ارتسمت على وجهه علامات الحيرة والذهول، مثل ذلك الذي يطلق على نفسه اسم «عادل إبراهيم»، والذي جلس في حجرة الاستجواب شاردًا، يتطلَّع إلى ما حوله في شيء من الخوف، وكأنه يواجه الحياة لأوَّل مرةٍ..

وعندما دلف «علي» إلى حجرة الاستجواب، التفتَ إليه الرجل في ذعرٍ عجيبٍ، وكأنه يرى شبحًا، وحاول أن يتراجع بمقعده، لولا تلك الأغلال التي تربط يده اليسرى بإحدى أرجل المنضدة الثقيلة أمامه..

ولثوانٍ، وقف «علي» يتطلَّع إليه في صمتٍ وهو يسترجع كلمات مدير الأمن:

- بعضهم عثَرَ عليه شاردًا، منذ بضعة أيامٍ، في منطقة «حلوان».. لم يكن يعرف مَن هو، ولا كيف أتى إلى هذا المكان.. ولقد سلَّمه بعضهم إلى قسم شرطة (حلوان)، وهناك، وكإجراءٍ تقليديٍّ، قاموا بأخذ طبعَةِ بصماته، وتم إرسالُها إلى قسم الأدلة الجنائية، وكانت المفاجأة..

«مَن أنت؟!»

ألقى «علي» السؤال على الرجل في هدوءٍ، على الرغم من ذلك التوتر العنيف الذي يسري في كيانه، فغمغم الرجل، وكل خلجة من خلجاته، تشي بالرعب مع صوته المرتجف:

- لستُ أدري!

ظلَّ «علي» يحدَّق فيه لحظاتٍ، محاوِلاً أن يستشف صدقه من عدمه، ثم اقترب منه في بطءٍ، وجلس على المقعد المواجه له، فبدت من الرجل حركة عصبية، وهو يقول في رعبٍ:

- هل ستفحصني ثانيةً؟!

انقعد حاجبا «علي»، وهو يسأله:

- أفحصك؟! وهل فحصَكَ أحدهم من قبل؟!

بدت علامات الألم على الرَّجُل، وهو يغمغم:

- لقد كان ذلك مؤلمًا.. مؤلمًا للغاية.

ولم يفهم «علي» ما يعنيه هذا..!

وفقًا لما سمعه وعرفه من مدير الأمن، لم يؤذِ أحد الرجل بلمسةٍ واحدةٍ، ولم يتعرَّض سوى لفحص بصماته..

وهذا لا يؤلم، بأي حالٍ من الأحوال..

لم يفهم، وعلى الرغم من هذا، فقد بذل جهدًا خرافيًا للسيطرة على أعصابه، ولدفع أكبر قدر من الهدوء إلى صوته، وهو يقول:

- اطمئن.. لن يفحصك أحدٌ.

ظلَّ الرجل يحدِّق فيه في شكٍّ مذعور بضع لحظات، فرسم «علي» ابتسامةً باهتةً على شفتيه، وهو يتمتم:

- اطمئن.

ظلَّت قسمات الرجل على حالها بعضَ الوقت، فحافظ «علي» على ابتسامته بصعوبةٍ، حتى بدأت قسمات الرجل في اللين، وغمغم في حذرٍ:

- أتعِدُني بهذا؟!

أجابه في خفوتٍ:

- أعِذُك.
بدا وكأن الرجل يحاول استعادة هدوئه في صعوبة، فسأله «علي» في حذرٍ:
- هل سمعت من قبل اسم «طارق بشير»؟!
أطلَّت حيرةٌ حقيقيةٌ من عينيِّ الرجل، وهو يتمتم:
- يلوح لي أنني قد سمعت هذا الاسم من قبل، ولكنني أجهل أين ومتى سمعته.
همَّ «علي» بقول شيءٍ آخَرَ، ولكن الرجل اندفع يُضيف فجأةً:
- رباه..! لقد فحصوه أيضًا.
انعقد حاجبا «علي» في شدةٍ، وهو يقول في لهجة لم يستطع منع عصبيته من التسلُّل إليها:
- إنك تكرِّر هذا.. من هؤلاء؟! ولماذا يفحصونك أو يفحصونه.
استعادت ملامح الرجل كلَّ فزعها، وهو يلوِّح بذراعيه، هاتفًا:
- لا.. لن أخبرك شيئًا.. أنت تسأل عمَّا لا ينبغي أن تعرفه.. لا.. لا..
بدأ يصرخ على نحوٍ مُتَصلٍ، وهو يضرب الهواء بذراعيه في قوةٍ هستيريَّةٍ، مما جعلَ «علي» يتراجع، ويحدِّق فيه في ذهولٍ، ثم هبَّ من مقعده، واندفع خارج الحجرة يهتف بزملائه:
– فليستدع أحدكم طبيبًا.. الرجل مصابٌ بهياجٍ رهيبٍ، و..
لم يكن قد أتمَّ عبارته، عندما شعر بذلك الدَّويِّ الهائل في رأسه قبل أقل من ثانية من سطوع ذلك الضوء المبهر الرهيب، داخل حجرة الاستجواب مقترنًا بصرخةِ رعبٍ هائلةٍ مُدوِّيةٍ، ختم بها الرجل داخلها صرخاته، التي توقفت بعدها تمامًا..
وعلى الرغم من الضوء شديد السطوع، حمى «علي» عينيه بذراعه، ثم اندفع عائدًا إلى حجرة الاستجواب..
وفي نفس اللحظة التي وطأتها فيه قدميه، تلاشى الضوء دفعةً واحدةً..
وعندما فتح عينيه، كانت أمامه مفاجأةٌ مذهلةٌ..
لقد كانت الحجرة خاليةً من البشر..
المنضدة الثقيلة والمقعدان كانوا هناك..
وحتى ذلك القيد، الذي كان يربط معصم الرجل، ظلَّ هناك، مغلقًا كما كان..
ولكن الرجل نفسه لم يكن هناك..
واتسعت عينا «علي» عن آخرهما في ذهولٍ..
الحجرة لم يكن فيها أيُّ مَخرجٍ آخر سوى هذا الذي يقف عنده..
لا أبواب أخرى..
أو حتى نوافذ..
ولَكِنَّ الرجل اختفى..
تمامًا..
لحق به بعض الضباط في هذه اللحظة، وهتفَ أحدهم في ذهولٍ:
- أين المتهم؟!
غمغم «علي» يُجيبه بنفس الذهول:
- اختفى.
انتقل ذهوله إلى كل الموجودين، وضابطٌ آخر يغمغم:
- مستحيل..!

نفس الكلمة صرخ بها مدير الأمن عندما عَلِمَ بالموقف، وبدا شديد العصبية وهو يهتف مكملاً:
- كيف يمكن أن نشرح هذا للرؤساء؟! سيتصوَّرون أننا قد أطلقنا سراح المتهم.
أجابه «علي» في توتُّرٍ:
- لا أعتقد هذا.. أوَّلاً لأنه لم يكن متهمًا في الواقع، وثانيًا لأنه هناك أكثر من عشرة شهودٍ على الموقف، وثالثًا لأنها ليست أول حادثة اختفاء في هذه القضية، التي تكاد تصيبني بالجنون..
بدا اليأس على وجه مدير الأمن وهو يقول في بؤسٍ:
- كيف سنواجه الموقف إذًا؟!
أجابه «علي» في ضيقٍ:
- لست أظن هذا الأمر الأكثر أهمية الآن يا سيِّدي، فنحن في الواقع أمامَ مجموعة من الأحداث، التي قد تتكرَّر على نحوٍ كبيرٍ، لو أننا لم نتوصَّل إلى تفسير لها.
قلبَ مدير الأمن كفيه في يأسٍ، وهو يقول:
- أيُّ تفسيرٍ؟! «طارق» اختفى داخل حجرة الإعدام، وأنشوطة الحبل محكمةٌ حولَ عنقه، والمفتش «جمال» و «سامي» اختفيا من داخل سيارة مغلقة، والمتهم الأخير اختفى من حجرة الاستجواب، وترك قيده خلفه وهو مغلق في إحكام.. عن أي تفسير تتحدَّث يا رجل؟!
أجابه «علي» في بطءٍ:
- ربما كان تفسيرًا يتجاوز عقولَنا، أو قدرتنا على الفهم، أو...
تردَّد لحظةً، قبل أن يضيف في حذرٍ:
- أو تكنولوجيتنا.
حدَّق فيه مدير الأمن في دهشةٍ، قبل أن يسأله:
- ماذا تعني؟!
تردَّدَ «علي» لحظةً أخرى، ثم اندفع قائلاً:
- ربما هي تكنولوجيا جديدة لنقل البشر يحاول بعضهم تجربتها على أرضنا لغرضٍ ما.
حدَّق فيه مدير الأمن مرةً أخرى، ثم قال في عصبية:
- أيُّ قولٍ أحمق هذا؟!
بدا «علي» شديد الجرأة، وهو يسأله:
- ألديك تفسيرٌ آخر؟!
ظهرت الحيرة على وجه مدير الأمن، وهو يغمغم:
- لا يمكنني أن أورد هذا في تقريري.
تزايدت جرأة «علي»، وهو يقول في حزمٍ:
- ولكن هذا ما حدثَ بالفعل، ومن الضروري أن يعلم به المسئولون، وعلى أعلى مستوى؛ فقد يتحتم عليهم الاستعانة بجهاتٍ أخرى.
سأله مدير الأمن في توترٍ:
- مثل ماذا؟!
هزَّ «علي» رأسه، وهو يقول:
- لست أدري؟! ربما جهة فنية عليا، أو بعض كبار العلماء، أو جهاز المخابرات، أو..
قاطعه مدير الأمن في حدة:
- هذا سيعني فشلنا.

قال «علي» في سرعةٍ:
- ولكنه قد يساعد على كشف الحقيقة.
انعقد حاجبا مدير الأمن في غضبٍ، ولكن «علي» تابع في حزمٍ:
- فمَن يدري من سيكون الضحية التالية.. ربما أنا، أو...
صمت لحظةً، وهو يتطلَّع إلى وجه مدير الأمن مباشرةً، قبل أن يضيف بكل الحزم:
- أو أنت..
اتسعت عينا مدير الأمن عن آخرهما، وأطلَّت منهما لمحةٌ من الهلع، قبل أن يخفض رأسه ويرتكن على سطح مكتبه بقبضته بضعَ لحظاتٍ في صمتٍ تام، أدرك معه «علي» أنه يدير الأمر في رأسه، ولقد كان مُحِقًّا في هذا، فقد عاد مدير الأمن يرفع عينيه إليه وهو يقول في استسلامٍ:
- أظنُّك على حق أيها الرائد.
شعر «علي» بالارتياح، وهو يغمغم:
- هذا أفضل قرار تتخذه يا سيِّدي.
جلس مدير الأمن خلف مكتبه، وقد بدا أشبه برجلٍ أصابه إعياءٌ شديدٌ، وهو يغمغم:
- دعني أبحث فقط عن الوسيلة المناسبة لهذا.
أجابه «علي» في خفوتٍ:
- وسيلة الشفافية والمصارحة يا سيدي.
هزَّ المدير رأسه، وهو يغمغم في يأسٍ:
- المسئولون لا يرون الأمور، بالصورة التي تراها أيها الرائد.
غمغم «علي»:
- اجعلهم يرونها يا سيِّدي.
زفرَ مدير الأمن في توترٍ، مغمغمًا:
- سأحاول.
مع إجابته، شعر «علي» فجأةً بنفس الدَّويِّ، الذي شعر به في رأسه قبيل اختفاء الرجل في حجرة الاستجواب مباشرة فاعتدل في حركةٍ حادةٍ، جعلت مدير الأمن يسأله في توترٍ شديدٍ:
- ماذا حدث؟!
أجابه في عصبيةٍ:
- أظن أنه ينبغي أن أعود إلى حجرة الاستجواب فورًا.
مع عبارته، ارتفعت موجة من الهرج، خارج مكتب مدير الأمن، واندفع أحد الضباط إليه دون استئذانٍ، وهو يهتف في انفعالٍ شديدٍ:
- ذلك الضوء سطع في حجرة الاستجواب مرةً أخرى، و...
لم ينتظر «علي» انتهاء الضابط من عبارته، وإنما اندفع يعدو بكل قوته، عائدًا إلى حجرة الاستجواب، وعندما وصل إليها، في الطابق الأسفل، كان هناك عددٌ من الضباط يقفون ببابها، ويحدِّقون في ذهولٍ، ومن الواضح أن أحدًا منهم لا يجرؤ، أو حتى يفكر في دخولها..
ومتجاوزًا إياهم، اندفع «علي» إلى داخل الحجرة، ثم توقَّف فجأةً، واتسعت عيناه عن آخرهما..
لقد كان الأمر يختلف تمامًا عما تركه عليه..
كان هناك رجلٌ آخر، في نفس الموضع الذي كان فيه الرجل الذي اختفى..

رجل يجلس على نفس المقعد، ومعصمه داخل تلك الأغلال المربوطة في أحد أرجل المنضدة الثقيلة..
رجل يرتدي زِيًا مختلفًا، ورأسه ملقى على المنضدة على نحوٍ يوحي بأنه فاقد الوعي..
وبعد لحظةٍ من التردُّد، أسرع «علي» نحو ذلك الرجل، ورفع رأسه؛ ليلقي نظرةً على ملامحه..
ثم ارتدَّ في عنفٍ، من أثر الصدمة..
فذلك الرجل لم يكن من يدَّعي أنه «عادل إبراهيم»..
بل كان شخصًا، لم يتخيَّل قَطُّ أن يراه في هذا المكان..
ولا في أي مكانٍ آخر..
على الإطلاق .

* * *

الفصل الثاني عشر

كانت الأرض تدور على نحوٍ غير مألوفٍ، حتى إن المفتش «جمال» شعر بأنه يسقط في دوَّامةٍ طويلةٍ..
وبطيئةٍ..
ولوقتٍ بدا له كالدهر، راح عقله يبذل جهده ليتجاوز هذه الحالة..
ومن بعيد.. بعيد جدًا، سمع صوتًا يقول:
- استرخِ، وسيمر كل شيء في سلامٍ.
بدا له الصوت مألوفًا إلى حدٍّ ما، ولكن عقله المشوَّش عجز عن تمييزه جيدًا..
ولقد حاول أن يقول شيئًا..
أيَّ شيءٍ..
أو أن يُحرَّك حتى ساقيه أو ذراعيه..
ولكنه لم يستطع..
كان كمَنْ أُصيبَ بشلَلٍ رباعيٍّ كاملٍ، يسيطر على صفاءِ ذهنه، في حين كان ذلك الصوت يأتي من منطقةٍ أقربَ، قائلاً في هدوءٍ:
- لا تقاوم.. المقاومة تزيد الأمر سوءًا.. استرخ وسيصفو ذهنك بعد أقل من دقيقة واحدة..
ولم يكن أمام «جمال» سوى اتباع النصيحة..
لذا، فقد استرخى تمامًا..
ومع استرخائه، بدأ يشعر بالدماء تسري في ساقيه وذراعيه، فحرَّك أصابعه في حذرٍ، وعندما استجابت له، أغلق عينيه مغمغمًا:
- حمدًا لله.
شعر بيد حانية تربِّت على ذراعه، وسمع ذلك الصوت على مقربةٍ منه يقول في ارتياحٍ:
- حمدًا لله على سلامتك.
فتح عينيه، وحدَّق في الرجل، الذي انحنى فوقه، وانعقد حاجباه، وهو يغمغم في ضعفٍ:
- أنت ذلك الرجل.
ابتسم الرجل، وهو يقول:
- نعم.. أنا «رأفت فهمي».. أستاذ النسبية الحديثة.
هزَّ «جمال» رأسه في ضعفٍ، وهو يقول:
- من السخف الاستمرار في هذه التمثيلية.. لقد تحرينا الأمر، ولم نجد جامعةً بهذا الاسم، ولا أستاذًا يحمل اسمك الزائف.
ابتسم الدكتور «رأفت»، وهو يقولُ:
- ربما ليس في زمنكم.
وتفجَّرت العبارة في رأس «جمال» كالقنبلة..
ليس في زمنكم؟! ماذا يعني بقوله هذا؟!
أهذا هو تفسير كل الغموض؟!
أهذا هو السر الغامض؟!
السفر عبر الزمن؟!

رباه..! أيُّ خيالٍ يعيش؟!
إنه ليس حقيقةً حتمًا..
إنه كابوسٌ..
كابوس لن يلبث أن يستيقظ منه؛ ليواجه عالمه الحقيقي..
فكرة الكابوس جعلته يغلق عينيه مرة أخرى؛ محاوِلاً العودة للنوم، ولكنه شعر بيد الدكتور «رأفت» تربِّت على ذراعه مرةً أخرى، مع صوته الهادئ وهو يقول:
- لقد أربكك الأمر.. أليس كذلك؟!
عاد «جمال» يفتح عينيه وهو يقول في عصبية:
- ما الذي تحاول فعله يا رجل؟!
ناوله الدكتور «رأفت» كوبًا صغيرًا، وهو يقول:
- ارتشف هذا، وسيصفو ذهنك تمامًا، ويستعيد جسدك نشاطه، وعندئذٍ يمكننا التحدُّث.
تردَّد «جمال» وهو ينظر إلى الكوب، فعاد الدكتور «رأفت» يبتسم، وهو يقول:
- سل نفسك: ماذا منعني من قتلك، بدلاً من إفاقتك، لو أنني أسعى إلى هذا؟!
كان سؤاله منطقيًا، فالتقط «جمال» الكوب، وارتشف محتوياته رشفةً واحدةً.. وبدا ما حدث له بعدها وكأنه معجزة..
لقد صفا ذهنه بغتةً، ودبَّ النشاط في جسده كله، وكأنما تلقَّى جرعةً سحريةً، فهبَّ جالسًا على طرف الفراش شديد النعومة، الذي يجلس عليه وهو يقول في حزمٍ:
- أحتاج إلى كثيرٍ من التفسيرات.
مع الأحرف الأخيرة من عبارته، شعر وكأنه ينزلق من فوق الفراش الناعم، فأسرع الدكتور «رأفت» يدعم جسده، وهو يقول:
- سيمضي وقتٌ، قبل أن تتأقلم على تقنياتنا.
في تلك اللحظة فقط، ومع عبارة الدكتور «رأفت»، انتبه «جمال» إلى أنه لم يكن يرقد على فراش حقيقي، وإنما على وسادة هوائية عجيبة..
وسادة غير مرئية، ولكن لها ملمس شديد النعومة، صنعته زخَّات مدروسة من الهواء في اتجاهات أفقية ورأسية..
وفي ذهولٍ، غمغم «جمال»:
- رباه..! إذًا فهذا حقيقيٌّ.
تمتم الدكتور «رأفت»:
- لا بُدَّ وأن تتعايش مع هذه الحقيقة.
رفع «جمال» عينيه إليه، في انزعاجٍ واضحٍ وهو يسأله:
- في أيِّ زمنٍ نحن؟!
أجابه الرجل في هدوءٍ:
- زمن يفوق عصرك بقرنٍ من السنين، وألف قرنٍ على الأقل من التطوُّر العلمي والتقني.
تلفَّت «جمال» حولَه في ذهولٍ، ورأى أن كل ما حوله يؤكِّد كلمات الرجل تمامًا..
الجدران المخملية..
الشاشة ثلاثية الأبعاد، التي تحتل جدارًا كاملاً..
الأجهزة الصغيرة في كلِّ مكانٍ..

وحتى الأثاث المتناثر في الحجرة الواسعة التي يقفان فيها..
كل شيء كان مستقبليًا، بكل وضوح..
درات رأسه، مع فكرة أنه قد انفصل عن زمنه بقرنٍ من الزمان، فوضع يده على جبهته، وكاد يسقط مرةً أخرى على الوسادة الهوائية، ولكن الدكتور «رأفت» أمسك ذراعه وهو يقول:
- هيَّا.. تجاوز الموقف، فلدينا الكثير لنتحدَّث عنه.
هز «جمال» رأسه، وهو يقول:
- من العسير استيعاب كل هذا.
أجابه الدكتور «رأفت» في حزمٍ:
- ولكن تاريخك يتحدَّث عن عبقريتك، في استيعاب ما لا يمكن استيعابه.
غمغم «جمال» في دهشة:
- التاريخ..
ربَّت الدكتور «رأفت» على كتفه، قائلاً:
- اطمئن.. إنه تاريخٌ مشرِّفٌ للغاية.
تمتم «جمال» في مرارةٍ:
- وهو ينتهي عند لحظة اختفائي من عصري بالطبع.
صمت الدكتور «رأفت» لحظة، ثم قال:
- إنك لم تستوعب الأمر بَعْدُ.
التقط «جمال» نفسًا عميقًا، وقال:
- لقد استوعبت بعضه على الأقل.
تطلَّع إليه الدكتور «رأفت» لحظاتٍ، ثم تراجع ليجلس على مقعدٍ هوائيٍّ، وهو يسأله:
- وما الذي استوعبته بالضبط؟!
شدَّ «جمال» قامته وكأنما يقف أمام أحد رؤسائه، وقال في حزمٍ:
- أحدكم يعبث بزمننا، وكأنه يمارس لعبةً كبيرةً، ويتصوَّر نفسه (روبين هود)([10])، الذي سيحل مشكلات الماضي، التي سجَّلَها تاريخكم، فينتقل من زمنكم إلى زمني؛ ليقوم بأعماله البطولية.
ظلَّ الدكتور «رأفت» يتطلَّع إليه لحظاتٍ في صمتٍ، قبل أن يقول:
- استنتاج تنقصه الدقة العلمية؛ فالعبث بالماضي شديدُ الخطورة على الحاضر والمستقبل، وهذا ما نطلق عليه اسم «تأثير الفراشة»؛ إذ لو سافر شخصٌ إلى الماضي، وقتل فراشة واحدة قد يعود إلى زمنه، فيجد عالمًا يختلف كل الاختلاف عما تركه؛ إذ أن الفراشة الواحدة، من الناحية العلمية، هي جزءٌ من دورة الطبيعة الكاملة، وعندما تقتلها، فأنت تعدِّل الدورة الحياتية؛ لتصنع دورةً جديدةً مختلفةً، ذات نتائج تترتَّب على بعضها البعض، على نحوٍ شديدِ التعقيد، مما يؤثِّر على كل دورات الحياة المرتبطة بدورة الحياة الرئيسية للفراشة، بما فيها دورة حياة الإنسان، وتطوُّر الطبيعة من حوله. ([11])
التقى حاجبا «جمال» وهو يقول في عصبيةٍ:
- هل تتوقَّع مني استيعاب هذا؟!
أشار الدكتور «رأفت» بيده، وهو يقول في بساطةٍ:
- كلَّا بالطبع.
ثم استدرك في اهتمامٍ:

- على الرغم من أنها قديمة للغاية، وتعود إلى ما قبل الزمن الذي التقينا فيه .([12])
هزَّ «جمال» رأسه، وهو يقول بنفس العصبية:
- ربما.. هذا أمرٌ يهم العِلميين فحسب.
تراجع الدكتور «رأفت» في مقعده، وهو يقول في اهتمامٍ:
- هذا صحيحٌ.
صمت «جمال» يتطلَّع إليه لحظةً، ثم قال، محاولاً – كعادته- دفع أكبر قدرٍ من الحزم إلى صوته:
- ولكن لو أنها ليست لعبة زمن، فما تفسير ما يحدث؟!
اعتدل الدكتور «رأفت» في اهتمامٍ، عندما سمع السؤال، وأشار بيديه معًا في حماسٍ، وهو يقول:
- عندما قاطعونا هناك، كنت أخبرك أنه لدى أحد تلامذتي، يدعى..
أشار «جمال» بيدِه يقاطعه، قائلاً:
- آه.. تذكَّرت.. يمكنني استنتاج الأمر، من هذه النقطة.
نظر إليه الدكتور «رأفت» في دهشة، استغرقت لحظاتٍ قليلةً، قبل أن يعود إلى التراجع في مقعده وهو يشير إليه بكفه، قائلاً:
- فليكن.
أجابه «جمال» في حزمٍ:
- من الواضح أن تلميذك هذا يعبث بلعبة الزمن، التي تتحدَّث عنها، مثيرًا حالة من الفوضة الزمنية، التي يمكن أن تفسد زمنك، استنادًا إلى تأثير الفراشة هذا، الذي تتحدث عنه، وأنك تسعى خلفه لإصلاح ما يفعله، حفاظًا على زمنك.
لسببٍ ما، شعر «جمال» بشيء من الفخر في أعماقه؛ لأنه استطاع التوصل إلى استنتاجٍ كهذا، في زمن يفوقه بقرنٍ كاملٍ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة واثقة، وهو يتطلَّع إلى وجه الدكتور «رأفت» مباشرةً لرصد ردود أفعاله..
ولكن الرجل ظلَّ صامتًا لحظاتٍ طوال..
وظلَّ يتطلَّع إلى وجه «جمال»، دون أية تعبيرات، حتى إن هذا الأخير أضاف في حسمٍ:
- استنتاجٌ صحيح.. أليس كذلك؟!
واصل الدكتور «رأفت» صمته، لبضع لحظات أخرى، قبل أن يقول:
- كم تدهشني تلك الصفات التي أضفَتْها عليك كتب التاريخ حتى تصنع منك تلك الأسطورة الأمنية، التي أبهرتنا منذ حداثتنا..
لم يستوعب «جمال» جيدًا، ما إذا كانت العبارة مدحًا أم ذمًّا، إلا أن الدكتور «رأفت» مال إلى الأمام، وهو يضيف بشيء من الصرامة:
- إنك لا تتبع حتى أيَّ منهجٍ عِلميٍّ.. لقد بدأت استنتاجك، قبل أن تمنح نفسك فرصة الحصول على المعلومات الكافية.
ارتبك «جمال» لحظةً، وغمغم في توترٍ:
- أهو استنتاج صحيح أو لا؟!
أشار الرجل بيده، قائلاً:
- ربما فقط، في الجزء الخاص بالفوضى الزمنية.
ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف:
- الفارق أنني وتلميذي لا نصنعها، وإنما نقاومها.

اتسعت عينا «جمال» قليلاً، ولامَ نفسه بشدةٍ، على تسرُّعه الواضح في الاستنتاج، والذي جعله يقف هذا الموقف...
رجل المستقبل هذا كان على حقٍّ..
إنه لم ينتظر حتى يحصل على كافة المعلومات بالفعل..
ربما لأنه أراد أن يبهر الرجل..
أو أن يحافظ على صورته، التي أخبره أنها دُوِّنَت في كتب التاريخ..
وهذا خطأ..
أكبر خطأ..
اتجه مع شعوره بالخجل إلى مقعد هوائيٍّ آخر، وجلس عليه في حذرٍ؛ خشية السقوط أرضًا، ولكن المقعد استقبله في نعومةٍ مدهشة، بثَّت في جسده شعورًا عجيبًا بالاسترخاء، فاستقر فوقه في ارتياحٍ وهو يسأل الدكتور (رأفت):
- أخبِرني ما لديك أوَّلاً إذًا.
استرخى الدكتور «رأفت» بدوره في مقعده، وهو يقول:
- كما أخبرتك في البداية.. لدي تلميذ نجيبٍ عبقريٍّ يدعى «هيثم»، انبهر منذ دراسته للعلوم، بفكرة آلة الزمن، التي اخترعها الروسي (تشيرنوبروف) عام 1997م([13])، وانهمك لسنواتٍ في مراجعة كل معادلاته وتجاربه، التي لم تسفر، طوال ما يقرب من تسعين عامًا من التطوُّر، إلا عن نقل الأشياء الجامدة، بدءًا من العملات الصغيرة، وحتى بعض الآلات البسيطة، ولم تنجح أبدًا في نقل أي كائنٍ حيٍّ عبر الزمن، حتى الحشرات الصغيرة.. كل ما حدث في تطوُّرٍ، في آلة زمن (تشيرنوبروف)، خلالَ تسعة عقود، هو أنها استطاعت التحكُّم في الزمن، الذي ستنتقل إليه الأشياء الجامدة، وبعد أن كانت تنقلها إلى المستقبل فحسب في البداية، صار من الممكن مع تطويرها، تحقيق نظرية النسبية، ونقلها عبر الماضي والمستقبل معًا.
غمغم «جمال»:
- كأنني أستمع إلى ملخص أحد روايات الخيال العلمي.
تجاهل الدكتور «رأفت» ملحوظته تمامًا، وواصل في هدوءٍ:
- وذات يومٍ، منذ أقل من خمسة أعوام من زمني، توصَّل «هيثم» إلى المعادلة الناقصة، في آلة (تشيرنوبروف)، واشتركنا معًا في صنع أوَّل آلة زمنٍ، يمكنها نقل الكائنات الحية، ولقد أجرينا تجاربنا الأوَّلية، على نقل كائنات حيَّةٍ بسيطةٍ عبر الزمن، إلى فتراتٍ محدودةٍ من الماضي والمستقبل، وكُلِّلت تلك التجارب بالنجاح، وهنا انتقلنا إلى كائنات أرقى، وأرقى، وتطوَّرت المعادلة الجديدة مرةً، وثانيةً، وثالثةً، حتى أمكننا ذات يوم، منذ عامين تقريبًا، نقل أحد القرود العليا، إلى الماضي والمستقبل، دون أن يتعرَّض سوى لبعض الوهن، الذي أمكننا علاجه، بذلك العقار الذي تناولته، وأعاد إليك نشاطك بعد رحلتك الزمنية.
غمغم «جمال» في توتر:
- أتعني أنني قد تناولت عقار قرود؟!
مرة أخرى، تجاهل الدكتور «رأفت» ملاحظته، وهو يتابع:
- أدركنا عندئذٍ أن تجاربنا قد نجحت، وبدأنا نستعد لإعلانها، في مؤتمرٍ كونيٍّ شاملٍ، عندما حدثَ ما حدثَ.
العبارة الأخيرة جعلت «جمال» يعتدل، ويسأله في اهتمامٍ:

- وماذا حدث؟!
زفر الدكتور «رأفت» زفرةً حادَّةً، تَشِفُّ عن ذلك التوتر العنيف، الذي سرى في أعماقه، وقال:
- سأخبرك.. ولكن حاول أن تستوعب الأمر، فقد استغرقنا نحن شهرًا كاملاً لفهمه واستيعابه.
وعندما بدأ يخبره، اتسعت عينا «جمال» عن آخرهما..
فقد كان ما يخبره به، يتجاوز حتى أفلام الخيال العلمي..
كان بحق مذهلاً..
للغاية..
* * *

الفصل الثالث عشر

«مستحيل..!»
غمغمَ «علي» بالكلمة في ذهولٍ، وهو يحدِّق في الرجل، الذي حلَّ محل من يدعي أنه «عادل إبراهيم»، في حجرة الاستجواب..
كان فاقدًا لوعيه تمامًا، ووجهه شديد الشحوب، ومعصمه داخل الطرف الثاني للأغلال المعدنية القوية، التي ما زال طرفها الأوَّل ملتفًا حول أحد مقاعد المنضدة الثقيلة..
وكان هذا في حدِّ ذاته مذهلاً..
لقد تحرَّر الأوَّل من طرف الأغلال القوية المحكمة، بعد دفقةٍ من الضوء شديد السطوع، ثم عاد إليها الثاني وهي ما زالت مُحكَمَةً، في الموضع نفسه..
كان شيئًا أشبه بالخيال..
أو بالسحر..
أما الرَّجُل الذي أمامه، فقد كانت عودته أشدَّ غموضًا من اختفائه..
كان «طارق بشير»..
«طارق» نفسه، الذي اختفى من حجرة إعدامه، وعاد إلى حجرة استجواب مغلقة..
ولثوانٍ طوال، ظلَّ «علي» يحدِّق في وجه «طارق» ذاهلاً، قبل أن يتمتم:
- هذا الرجل بحاجةٍ إلى إنعاشٍ.. أحضِروا أحد الأطباء.
غمغم أحد الضباط من الخلف، في ذهولٍ يفوقه:
- ولكنه...
قاطعه «علي» في حدةٍ:
- أحضِروا أحد الأطباء .
لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى كان هناك طبيبان يفحصان «طارق»، في حين وصل مدير الأمن بنفسه إلى حجرة الاستجواب، وحدَّق فيه في ذهولٍ، مغمغمًا:
- لماذا عاد؟! سيواجه حكم الإعدام مرةً أخرى.
غمغم «علي» في عصبيةٍ:
- المهم كيف عاد؟!
نقل مدير الأمن بصره إليه، ثم عاد ببصره إلى «طارق»، قبل أن يستعيد تماسكه نسبيًا، ويقول:
- سأبلِّغ المسئولين أننا قد أعدنا السجين الهارب.
لم يكن هذا يتفق مع التسلسل القيادي، ولكن «علي» قال في حزمٍ:
- ليس بَعْدُ.
التفت إليه مدير الأمن في حدةٍ، قائلاً في صرامةٍ:
- هذا ليس قرارك.. لقد اختفى السجين من حجرة الإعدام، وها هو ذا أمامنا في حجرة الاستجواب، وهذا ينهي القضية.
استدار إليه «علي» في بطءٍ، وقال:
- وماذا لو اختفى مرةً أخرى، بعد أن نبلغ المسئولين؟!
امتقع وجه مدير الأمن، وهو يقول في عصبيةٍ:
- سنحيطه بحراسة مشدَّدةٍ، و...

اكتفى «علي» بالنظر إلى عيني مدير الأمن فحسب، فبتر هذا الأخير عبارته، وتمتم:
- ولكن ماذا يفيدنا إخفاء وجوده هنا؟!
أشار «علي» إلى «طارق»، الذي لا يزال فاقد الوعي، وقال:
- ربما عاد بوسيلةٍ ما، ولكن المفتش «جمال» والرائد «سامي» لم يعودا بعد، وربما يكمن حل اللغز كله فيما لدى هذا الرجل من معلوماتٍ.
سأله مدير الأمن في حذر:
- سنستجوبه أوَّلاً إذًا، ونستخلص كل ما لديه من معلوماتٍ، ثم...
لم يجد ما يكمل به عبارته، فبترها، ولاذ بالصمت لحظاتٍ قبل أن يقول في حدةٍ:
- أخبرني، عندما تنتهي من أمره.. إنها قضيتك الآن.
قالها، واندفع يغادر المكان في عصبيةٍ، فراقب «علي» ابتعاده لحظةً، ثم التفت إلى الطبيبين، متسائلاً:
- ماذا لديكما؟!
أجابه أحدهما:
- من الواضح أنها حالةُ إرهاق شديدة... لقد عانى هذا الرَّجُل الكثيرَ، وأظن أنه سيتحتم نقله إلى وحدة العناية الفائقة.
قال أحد الضباط في عصبيةٍ:
- كلَّا.. هذا الرجل لن يخرج من هنا.
ولكن «علي» التفت إليه، قائلاً في صرامةٍ:
- لن يصنع هذا فارقًا.
ثم أضاف، وهو يضغط حروفَ كلماته؛ لتحمل المعنى الذي يقصده:
- لن يمكننا منعه في كل الأحوال.
تراجع الضابط، وقد أدرك ما يعنيه هذا، في حين عاد «علي» يلتفت إلى الطبيبين، قائلاً في حزمٍ:
- فليكن.. سنستدع سيارة إسعاف، وسأصحبه بنفسي طوال الوقت.
لم تستغرق سيارة الإسعاف وقتًا في الحضور، وسرعان ما نقلت «طارق» الفاقد الوعي، مع أحد الطبيبين والرائد «علي»، إلى مستشفى الشرطة في حي (العجوزة)، حيث تم وضعه في حجرة العناية الفائقة، وتساءلَ الطبيب وهو يغرس إبرة نقل المحاليل المستديمة في أحد أوردته:
- ألا ينبغي وضع حراسةٍ مشدَّدةٍ على الحجرة؟!
هزَّ «علي» رأسه نفيًا، وأجاب في حزمٍ مُقتضبٍ:
- كلَّا.
قالها، ووقف يراقب الأطباء، وهم يتخذون ما يلزم لإسعاف «طارق»، وتوصيل جسده بكل أجهزة القياس الحيوية، ثم لم يلبث أن سأل في اهتمامٍ:
- هل يعاني من الإرهاق فحسب، أم إنه قد تعرض إلى شيءٍ من التعذيب، أو الفحص المؤلم، على نحوٍ أو آخر؟!
التفت إليه الطبيب في حذرٍ، يسأله:
- هل تحاول اتهام أحد زملائك؟!
أجابه «علي» بكل صرامةٍ:
- سألتك سؤالاً محدَّدًا.

التفت الطبيب إلى جسد «طارق»، يفحصه بعينيه في سرعةٍ:
- لا يمكنني الجزم الآن.. هناك علامات حبل، على طرف عنقه، ربما تعني أن أحدهم حاول خنقَه، وهناك آثار ضعيفة على بطنه وصدره، تبدو أشبه بلدغات بعوضٍ ضخمِ الحجم، أو إحدى الحشرات المشابهة، ولكنني لم أرَ مثلها من قبل.
عاد «علي» يسأله:
- هل من وسيلةٍ لفحص هذا؟!
هزَّ الطبيب كتفيه، وقال:
- هناك وسائل عدة هذه الأيام، بدءًا من الأشعة العادية، وحتى الأشعة المقطعية والرنين المغناطيسي.
سأله «علي» في اهتمامٍ:
- ومتى يمكننا استخدام هذه الوسائل؟!
أجابه الطبيب في سرعةٍ:
- عندما يستعيد وعيه.
بدا سؤال «علي» يائسًا، وهو يقول:
- ومتى يحدث هذا؟!
رفع الطبيب عينيه لحظةً، إلى شاشات أجهزة القياس الحيوية، ثم أجاب:
- كل ما نملكه هو أن ننتظر.
حملَ صوت «علي» ضِيقه، وهو يغمغم:
- فليكن.. سننتظر.
في نفس اللحظة، التي نطق فيها عبارته، كان النقيب «أنور» معاون المباحث يتناول فنجان القهوة الثالث في أقل من ساعةٍ واحدةٍ؛ محاولاً التغلُّب على ذلك الصداع الشديد، الذي ينتابه طوال الوقت، منذ سطع ذلك الضوء شديد الإبهار في وجهه، عندما كان يقف مع الرائد «سامي»، في تلك المنطقة المهجورة..
كان صداعًا لم يشعر بمثله من قَبْلُ، في حياته كلِّها، لا يسيطر على عقله فحسب، بل يمتد إلى كيانه كله تقريبًا..
أضف إلى هذا تلك الكوابيس العجيبة، التي يراها كلَّما أغلق عينيه، حتى ولو لم يكن نائمًا.. كوابيس يرى نفسه فيها في مكانٍ عجيبٍ، أشبه بغابة من الكريستال، وهناك أشياء شبه شفافة تتحرَّك بينها، وأحد تلك الأشياء يواجهه مباشرةً، ويشير إليه في صرامةٍ وتعالٍ، وكأنه يأمره بالركوع أمامه..
والعجيب أنه، حتى في كوابيسه، لم يطع هذا الأمر قَطُّ..
وفي كل مرة يرفض فيها طاعته، كان ذلك الصداع يزداد شدةً..
ويزداد..
ويزداد..
ولقد اختبر كل أنواع المسكِّنات المعروفة، حتى تلك المحظور تداولها، ولكنها لم تأتِ بأية نتائج، مع هذا الصداع المؤلم..
وفي بعض الأوقات، كانت تراوده فكرة الخضوع..
إنه مجرَّد كابوس، ولن يضيره هذا..

ولَكِنَّ شيئًا ما في أعماقه كان يرفض..
وبشدةٍ..
فيتزايد ألمُ الصداع أكثر..
وأكثر..
وأكثر..
واليوم بالتحديد، قرَّر أن يذهب لزيارة مستشفى الشرطة لفحص رأسه، ومعرفة سبب هذا الصداع، الذي أصابه بالإرهاق الشديد..
ربما عرفوا أسبابه، ووجدوا له علاجًا طبيًا..
أو نفسيًا..
مَن يدري؟!
انتهى من ارتشاف فنجان القهوة، ثم نادى جندي مكتبه، ونهض قائلاً:
- أخبر النقيب «أسعد» أن يحلَّ محلي اليوم؛ لأنني ذاهب في مأمورية خاصة.
قالها، وانصرف مباشرةً دون حتى أن ينتظر إبلاغ زميله، واتجه على الفور إلى مستشفى الشرطة، حيث فحصه أحد الأطباء جيدًا، وأجرى له بعض الفحوص الأوَّلية، ثم هزَّ رأسه، وهو يطالع كل النتائج، وقال:
- الواقع أنه لا يوجد سببٌ عضويٌّ واضحٌ، لما تعانيه أيها النقيب.
غمغمَ «أنور» في ضيقٍ:
- ولكن الصداع يكاد يقتلني، وتلك الكوابيس...
لم يكمل عبارته، ولكن الطبيب فهم ما يعنيه، فقال:
- ربما تعاني من مشكلة ما في عملك، أو في حياتك الخاصة، ولكننا لن نجزم بهذا قبل أن نجري فحصًا لدماغك بالأشعة المقطعية أوَّلاً.
أومأ «أنور» برأسِه إيجابًا، وقال:
- أنا مستعد لكل أنواع الفحوص، لو أنها ستنهي هذا الألم.
التقط الطبيب سمَّاعة الهاتف الداخلي، وهو يقول:
- فليكن.. لو استطعنا تحديد موعد اليوم، فسنجريها على الفور.
كان الأمر متاحًا بالفعل، لذا فقد تمَّ تجهيز حجرة الأشعة المقطعية، ورقد «أنور» على السرير المخصَّص للفحص، وبدأ الجهاز عمله بالفعل، وأغمض «أنور» عينيه، مُحاوِلاً أن يسترخي خلال الفحص؛ لمقاومة ذلك التوتر، الذي يشعر به دومًا في المنشآت الطبية..
وعلى الرغم من عدم منطقية هذا، فقد هاجمه ذلك الكابوس، فور أن أغلق عينيه..
تلك الغابة الكريستالية..
والأجسام شِبهُ الشفافة..
وذلك الذي يأمره بالخضوع..
ولكن الصورة هذه المرة كانت أوضح..
وبكثيرٍ..
جدًّا..
ولقد أثار هذا داخله موجةَ فزع عجيبٍ..
فزع جعله يحاول فتح عينيه، للخروج من هذا الكابوس الرهيب..

ولكن العجيب أنه عجز عن هذا..
كان الجهاز يواصل عمل الرسم المقطعي لمخه، وهو راقد في سكونٍ، لا يوحي قَطّ بذلك الصراع المستميت في أعماقه..
لقد كان يقاتل بشدةٍ من أجل هدفٍ بسيطٍ للغاية، لأيِّ إنسانٍ عاديٍّ..
لفتح عينيه..
فقط..
وكان من الواضح أنه، وعلى الرغم من إجهاده الشديد، لا يقاتل بجسده..
وإنما بعقله..
بعقله فقط..
ورويدًا رويدًا، راحت تلك الصورة تتضح في أعماقه أكثر وأكثر..
وبدأت تلك الأجساد شبه الشفَّافة تتخذ تكوينًا واضح المعالم..
وكان تكوينًا يفوق ما كانت عليه إثارة للخوف..
أما ذلك الذي يأمره بالخضوع، فقد ظهرت له عينان كبيرتان، تلتهمان الجزء الأعظم من رأسه الضخم.
ولقد بدا له، في كابوسه المخيف، أن العينين تتسعان..
وتتسعان..
وتتسعان..
ومع اتساعهما، كانت قدرته على المقاومة تضعف..
وتضعف..
وتضعف..
«لقد انتهينا..»
اخترقت الكلمة أذنيه، فانتزعته من كابوسه دفعةً واحدةً، وجعلته يفتح عينيه في بطءٍ، وهو يقول:
- حقًّا!
نطقها في هدوءٍ عجيبٍ، كما لو أنه لم يعانِ ما عاناه منذُ قليلٍ، ونهض بنفس الهدوء؛ ليغادر جهاز الفحص، والطبيب يقول:
- مبدئيًا، تبدو الأمور كلها بخيرٍ، فيما عدا أن الجسم الصنوبري، في مؤخِّرة المخ، يبدو أكبر قليلاً من المعتاد، ولكنه لا يحوي أيَّة آثار، لأية اختلافات أو تشوهات.. باختصار، ليست هناك أسباب عضوية للصداع، وأنصحك باستشارة طبيب نفساني.
بدت ابتسامة «أنور» هادئةً، وربما أكثر مما ينبغي، وهو يقول:
- بالتأكيد..
غادر حجرة الفحص في هدوءٍ عجيبٍ يتنافى مع ذلك التوتر الشديد، الذي دخلها به، وراح يسير في طرقات المستشفى في ثقةٍ وسرعةٍ، وكأنه يتجه نحو هدفٍ بعينه، يعرفه مسبقًا، ويحفظ مساره عن ظهر قلبٍ..
وفي الطابق الذي يحوي قسم العناية الفائقة، توقَّف، وتحسَّسَ مسدسه، ثم اتجه إليه وعبر مدخله في خطواتٍ حاسمةٍ، فاستوقفه أحدُ مرضى القِسم، قائلاً:
- معذرةً يا سيِّدي، ولَكِنَّ هناك زِيًّا خاصًا لـ..

لم يمنحه «أنور» فرصة إكمال العبارة، وهو يتجاوزه في خُطواتٍ أقرب إلى العَدْو، متجهًا نحو الحجرة التي يرقد فيها «طارق»، والتي تبعد ما لا يزيد عن خمسة أمتارٍ، وسحب مسدسه وهو يضرب باب الحجرة بقدمه، فانطلقت صرخةٌ مدوّيِة، من ممرضةٍ في الممر، وتراجَع الممرِّض مذعورًا، و..

ودوت الرصاصات..

في عنفٍ..

* * *

الفصل الرابع عشر

لم يستطع المفتش «جمال» استيعاب ذلك الأمر في سهولة أبدًا..
لقد شعر برأسه يدور في عنفٍ، وهو يستمع إلى الدكتور «رأفت»..
فما قاله، كان عسير الاستيعاب في زمنه..
وربما في أي زمنٍ آخر..
ولقد ظلَّ صامتًا ذاهلاً، طوال حديث الدكتور «رأفت»، وواصل بقاءَه على هذا الحال، حتى بعد أن انتهى الرجل من روايته، وراح يُحدِّق فيه غير مصدِّقٍ، حتى قال الرجل في هدوءٍ:
- هل ترغب في أن أعيد عليك الأمر مرةً أخرى؟!
أومأ «جمال» برأسه في بطءٍ، وهو يقول:
- أرجوك.
التقط الرجل نفسًا عميقًا، ثم بدأ يعيد روايته كلها في صبرٍ، قائلاً:
- في البداية، بحثنا عن متطوِّعٍ، للقيام بأوَّل رحلةٍ زمنيةٍ بشريَّةٍ، وبدأ «هيثم» في إعداد المعادلات اللازمة لنقله إلى نقطة بعيدة في الماضي، وإعادته بعد زمنٍ محدودٍ، وبينما يجري استعداداته الأولى، لاحظ خللاً عجيبًا في التردُّدات، التي ترصدها آلةُ الزمن، عند بدء تشغيلها، وما أثار حيرتنا معًا، هو أن ذلك الخلل لم يكن ثابتًا أو منتظمًا، بل كان يظهر ويختفي، بين الحين والحين، فأوقفنا تجربة الرحلة الزمنية البشرية، ورحنا ندرس ذلك الخلل العجيب، وهنا صدمتنا المفاجأة.
غمغم «جمال»، وكأنه يحاول إقناع نفسه بما يسمعه:
- قراصنة الزمن.
أومأ الدكتور «رأفت» برأسه، قائلاً:
- نعم.. كائنات عجيبة، هي مزيجٌ من المادة والطاقة، على نحوٍ لم نعرفه أبدًا في عالمنا، وهي تسبح فيما نطلق عليه اسم «الزمكان»، أي عَبْرَ الزمان والمكان معًا.. لم نَدرِ أبدًا إلى أيِّ عالمٍ تنتمي، أو إلى أي بُعدٍ، أو حتى إلى أي زمنٍ، ولكننا رصدناها، وأدركنا بوسائل علمية سيعجز حتى أكثر علماء عصرك عبقرية عن استيعابها أنها كائنات شريرة النزعة، تسعى للسيطرة على الحضارات المختلفة، وإعادة توجيهها لخدمة أغراضها الشريرة، أو لتدميرها تمامًا، وكأن الدمار والخراب هما غايتها الأسمى.
غمغم «جمال» مسترجعًا ما سمعه من قبل:
- إذًا فقد كشفتم تلك الكائنات الزمنية، وأدركتم بوسائلكم التي أعجز عن استيعابها، أنها تسعى وراء زمني بالتحديد.
أشار الدكتور «رأفت» بسبَّابته، قائلاً:
- بالضبط.. كشفنا هذا، ولكننا عجزنا عن معرفة التفاصيل، عن كيفية سيطرتها، أو موعد ذلك، ولكننا، وبمزيدٍ من الدراسات، علمنا أن تكوينها لا يسمح لها بالتواجد في عالمنا للسيطرة عليه، وأن هذا يتعلَّق بتكوينها الأساسي الذي يتعارض مع قوانين الفيزياء لدينا؛ لذا فهي تسعى للسيطرة على بعض الأفراد، وتوجههم إلى أهدافها الشريرة.
التقط «جمال» نفسًا عميقًا، مُحاوِلاً استيعاب كل هذا الكم من المعلومات، الذي بدا له أعجب من كل روايات الخيال العلمي، التي شاهدَهَا على الشاشة، وأكثر تعقيدًا منها ألف مرةٍ، ثم قال في بطءٍ:
- ولهذا أرسلتم ذلك العميل، من زمنكم إلى زمني.

تنهد الدكتور «رأفت»، وقال:
- في البداية، حاولنا إقناع المسئولين بالخطر القادم، وبأنَّ السيطرة على ماضينا تهدِّد حاضرنا، وربما حضارات الأرض كلها، ولكنهم، وكأيِّ مسئولين، أرادوا دليلاً قاطعًا، لم نكن نمتلكه؛ نظرًا لأن تجاربنا ووسائلنا كانت فريدةً في عصرنا، ولم يتفق معظم العلماء مع نتائجها؛ لذا كانت هناك حتمية أن نقوم بالأمر بأنفسنا، مع شعورنا بمسئوليتنا الهائلة عن حاضرنا، والتي تمتد إلى زمنك أيضًا.
التقط «جمال» نفسًا آخر أكثر عمقًا، قبل أن يقولَ:
- هذا ما أخبرتني به حتى الآن، وأنا أحاول بالفعل استيعابه في صعوبةٍ، ولكن تبقى بعض التفاصيل، التي تهمني معرفتها.
أشار الدكتور «رأفت» بكفِّه، قائلاً:
- سَل ما بدا لك.
مالَ «جمال» نحوه، يسأله في اهتمامٍ:
- أهذا العميل هو «طارق بشير»؟!
صمت الدكتور «رأفت» لحظاتٍ، قبل أن يجيب في حزمٍ:
- كلَّا.
ثم اعتدل على مقعده الهوائي، وهو يتابع في اهتمامٍ:
- «طارق» لم يكن عميلنا، بل عميلهم.
تراجع «جمال» في حركةٍ حادَّةٍ كالمصعوق، وهو يهتف:
- عميلهم؟!
أومأ الدكتور «رأفت» برأسه إيجابًا، واستطرد:
- لقد كشفوا أمرنا، كما كشفنا أمرهم، فمن الواضح أن تكنولوجيتهم أيضًا شديدة التطوُّر، وعلموا أن رجلنا قد رحلَ إلى عالمكم؛ ليبحث عن وسيلةٍ لمنع سيطرتهم عليه، ولما كان تكوينهم يمنعهم من التواجد على أرضنا، فقد استخدموا تكنولوجيتهم المتطوِّرة، للسيطرة على عقل «طارق»، وقادوه للتخلص من رجلنا.
توقَّفَ عند هذه اللحظة، وعاد يتراجع في مقعده الهوائي، وهو يضيف:
- ولهذا تحتَّمَ عليَّ أن أنقذه.
هتف «جمال»:
- إذًا أنت المسئول عن اختفاء «طارق»، في حجرة الإعدام.
هزَّ الدكتور «رأفت» رأسه نفيًا، وقال:
- لم أكن أقصد «طارق».
اتسعت عينا «جمال» عن آخرهما، وهو يقول:
- هل تعني..
لم يكمل سؤاله، ولكن الدكتور «رأفت» أومأ برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم.. عميلنا في زمنكم، هو ذلك الذي حمل اسم «عادل».. «عادل إبراهيم».
وكانت مفاجأةً جديدةً..
وعنيفةً..
مفاجأة ألجمت لسان «جمال»، وأعجزته لحظات عن الكلام، فتابع الدكتور «رأفت»:

- عندما قرَّرنا إنقاذَ زمنكم، كان يتحتم علينا أن نوجد هوية، للشخص الذي سيعيش بينكم؛ لذا فقد بحثنا في كل سجلات عصركم، واخترنا طفلاً، لقيَ مصرعه في قريةٍ بعيدةٍ، لم تصل إليها يد الحضارة بالقدر الكافي، في أعماق الصعيد، الذي كنتم تهملونه في تلك الفترة، ثم، وبوسائل بسيطة في زمننا، أعددنا للشخصية كل الأوراق اللازمة، من وثائق وشهادات رسمية، مع عددٍ من الشهادات الجامعية، المنسوبة إلى دولٍ أخرى، باعتبار أن ذلك كان يبهركم في زمنِك، وهكذا، ظهر «عادل إبراهيم حماد» في زمنك، وبلمسةٍ من تكنولوجيتنا، أضاف بياناته إلى سجلات الأحوال الشخصية، والكمبيوتر المركزي، وصار رسميًا أحد أفراد زمنك.
تمتم «جمال»:
- ولهذا بدا للجميع عبقريًا، في مجال تكنولوجيا المعلومات، ونُظُم الأمن الرقمية.
هزَّ الدكتور «رأفت» كتفيه، وقال:
- هذا أمرٌ طبيعيٌّ، فلو عدتَ أنت، بمعلوماتك العامة، مائة سنة إلى الوراء، ألا تظن أنهم سيعتبرونك عبقريًا؟!
زفرَ «جمال»، قائلاً:
- بالتأكيد.
أشار الدكتور «رأفت» بيدِه مرةً أخرى، وقال:
- فما بالك بعبقريٍّ في زمننا، عاد مائة سنةٍ إلى الوراء؟!
حاول «جمال» أن يبتسم، وهو يقول:
- سيعتبرونه فلتةً من فلتات الزمن.
أضاف الدكتور «رأفت» في سرعةٍ:
- وهذا ما حدثَ بالفعل.
صمت «جمال» مفكِّرًا، قبل أن يقول في توتُّرٍ:
- ولهذا أصبحت شركته مسئولةً عن كل نظم المعلومات تقريبًا.
ابتسم الدكتور «رأفت»، وقال:
- لا تقفز بفكرك إلى نظرية التجسُّس؛ فبتكنولوجيتنا، لم يكن من العسير عليه، وهو يجلس في منزله أن يحصل على أدقِّ أسراركم.
بدا الجواب منطقيًا بالنسبة للمفتش «جمال» عندما أداره في رأسه، فطرح فكرة المؤامرة عن ذهنه، وقال في اهتمامٍ:
- ما زلت أشعر بالحيرة لما حدثَ، فلو أنك لست من أخرَجَ «طارق»، من حبل المشنقة، فمَنْ فعلها.
صمت الدكتور «رأفت» لحظاتٍ، ثم قال في بطءٍ:
- لم أقل إنني لم أفعلها.
تراجَعَ «جمال» في دهشةٍ مُستنكرةٍ، وهو يهتف:
- ولكنك قلت...
قاطعَهُ الدكتور «رأفت»، قبل أن يكمل:
- كنا نتحدث عن واقعةٍ بعينها، عندما ذكرت هذا.
صمت «جمال» لحظاتٍ ليفهم الأمر مرةً ثانيةً، ثم لم يلبث أن زفرَ وهو يقول:
- أظنُّني بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الشرح.

غمغم الدكتور «رأفت»:
- هذا حقُّك.
ثم اتخذ مجلسًا يوحي بالاهتمام، وهو يتابعُ:
- أولئك القراصنة يستخدمون تكنولوجيا مختلفة، للسفر عبر الزمان والمكان، وهي أكثر تطوُّرًا من تكنولوجيتنا بالتأكيد، فالله سبحانه وتعالى، وحده يعلم منذ متى يستخدمونها.. ربما من قرونٍ، أو من ملايين السنين.. المهم أن المعركة بيننا كانت عنيفةً، وربما هذا ما تسبب في الفوضى الزمنية، التي شعرت بها في زمنك، ويمكنك أن تدرك متى كنا نحن من يخترق الزمن، ومتى كانوا هم، من تكنولوجيا الانتقال نفسها.
عقد «جمال» حاجبيه، وهو يقولُ:
- هل تنتظر منِّي أن أفعل؟!
ابتسم الدكتور «رأفت»، وقال:
- إنه أمرٌ لا يتعلَّق بالنظريات العلمية المعقدة، بل بالمشاهدة العادية، فانتقالنا يصنع فجوةً زمنيةً فحسب، يُمكِننا من خلالها إيقاف الزمن لحظاتٍ، نقوم خلالها بما نريد، أما تكنولوجيتهم، وبسبب عدم توافقهم مع قوانين الطبيعة في عالمنا، فتطلق ضوءًا شديدَ السطوع، أشبه بشمس تشرق بغتةً، حيث يلتقون بزمننا العادي.
اتسعت عينا «جمال»، وهو يهتف:
- إذًا، فالأحداث لم تكن مرتَّبةً كما تصوَّرت.
أجابه الدكتور «رأفت»:
- لو وضعت هذه الحقيقة البسيطة نُصبَ عينيك، سيمكنك ترتيبها على نحوٍ منطقيٍّ.. لقد سيطروا في البداية على عقل «طارق»، وزرعوا في مخه وحدةً شديدةَ الدِّقَة، بحيث تعجز تكنولوجيتكم، بأقصى تطوُّرها عن رصدها، بكل الوسائل المتاحة لديكم، وبعدها دفعوه لقتل «عادل»، فاضطررت أنا للتدخُّل في زمنك، وإنقاذ «عادل»، ولهذا اختفى من حجرة مكتبه، دون ضوءٍ شديدِ السطوع، ودون أدنى أثرٍ، مما جعلكم تتهمون «طارق» بقتله، مع عجز عقولكم المحدودة، ومعارفكم القليلة، عن إيجاد تفسير آخر، ولكن حدث خللٌ في عملية انتقال «عادل» عبرَ الزمن، مما جعله يسقط في قبضتهم، ولم أجد سبيلاً لتخليصه منهم، سوى الحصول على «طارق»، الذي يحوي مُخُّه وحدةَ السيطرة، التي خشوا أن أكشف أمرها بتكنولوجية عصرية، فأطلقوا سراح «عادل»، مقابِلَ إطلاق سراح «طارق».
سأله «جمال» في دهشة:
- أتعني أنَّ كليهما قد عاد إلى زمني؟!
أومأ برأسه إيجابًا، وهو يقول:
- نعم.. بعد لقائنا هناك بأيامٍ قليلةٍ.
عاد الشك يرسم ملامحه على وجه «جمال»، وهو يقول:
- كيف علمت بهذا إذًا؟!
ابتسم الدكتور «رأفت» ابتسامةً بدت مشفقةً وهو يقول:
- مشكلتك أيها المفتش، أنك، وبعد كل ما سمعته، ما زلت تقيم للترتيب الزمني وزنًا، في صراعِ فريقينِ، يُمكن لكل منهما أن يسافر إلى أيِّ زمنٍ يشاء.
لم يكن الجواب سهل الاستيعاب، ولكن «جمال» تمتم:

- وماذا عن زيارتك لي؟!
هزَّ الدكتور «رأفت» رأسه، وقال:
- مع كل ما قرأته عنك، راودتني فكرة شرح الأمر لك في زمنك، وعندما كنا معًا، حاولوا هم السيطرة عليك؛ لمنعك من معرفة الحقائق، فلم يكن أمامي، والحال هكذا، سوى أن أعود بك بضع ساعات في الزمنِ؛ لأفسد خُطَّتهم.
هتفَ «جمال»:
- آه.. الآن فهمت لماذا حدثت لي تلك الفجوة الزمنية.
مال الدكتور «رأفت» نحوَه، وهو يقول في حزمٍ:
- المشكلة الآن، أنهم قد خالفوا الاتفاق واستعادوا «عادل» مرةً أخرى، وهو الآن في قبضتهم، وسيحاولون انتزاع كل أسرارنا منه بكل وسائلهم البشعة.
وصمتَ لحظةً، ثم أضاف في حذرٍ:
- ولقد اختطفوا مساعدك «سامي» أيضًا.
انتفض «جمال» على مقعده الهوائي، وهو يقول في عصبيةٍ:
- و«سامي» أيضًا.
زفر الدكتور «رأفت»، وقال:
- لا شكَّ لدي في أنهم سيحاولون أن ينتزعوا منه كل المعلومات الخاصة بك، ما داموا قد عجزوا عن الحصول عليك، بعد أن سافرت أنا إلى زمنك مرةً ثانيةً، وأحضرتك من داخل سيارتك إلى هنا.
صمت «جمال» لحظاتٍ طوالَ هذه المرة، محاولاً استيعاب كل تلك التعقيدات الأمنية العجيبة، خاصةً وأن دراسته لم تكن عِلميةً إلى الحد الذي يكفل له فهم كل الأمور، إلا أن طبيعته كرجل مباحث، جعلته يقطع صمته بسؤالٍ حازمٍ:
- وكيف يمكن منع كل هذا؟!
صمت الدكتور «رأفت» بعض الوقت، وهو يتطلَّع إلى عينيه مباشرةً، ثم قال:
- السبيل الوحيد الذي توصَّلتُ إليه، هو العودة إلى ما قبل سيطرتهم على عقل «طارق»، ومنع كل هذا التسلسل الزمني من الحدوث.
سأله «جمال» في حيرةٍ:
- ولماذا لم تفعل هذا؟!
بدت المرارة على وجه الدكتور «رأفت»، وهو يقول:
- لم يعد بإمكاني هذا.
سأله «جمال» في قلقٍ:
- لماذا؟! هل أصاب آلتكم الزمنية تلفٌ ما؟!
هزَّ رأسه نفيًا، وقال:
- كلَّا.. إنها سليمةٌ.. التلف أصاب خلاياي أنا، من السفر المتكرِّر عبر الزمن، ولم يعد باستطاعتها احتمال المزيد، والفحص الذي أجريته أثبت أنها ستنهار تمامًا، إذا ما قدت عمليةَ سفرٍ زمنية واحدةً.
ثم مطَّ شفتيه، وأشار بيدِه، مستطردًا:

- لقد رأيت بنفسك أيّ إنهاك يصيب المسافر عبر الزمن، بتكنولوجيتنا، التي لم تتطوَّر إلى الحد الكافي بعد.. الأمر يحتاج إلى من هو أكثر شبابًا منِّي.

سأله «جمال» في تردُّدٍ:

- وماذا عن «هيثم»؟!

تطلَّع الدكتور «رأفت» إلى عينيه مباشرة، وهو يقول:

- عجبًا! ألم تستنتج الأمر بعد؟!

ثم مال نحوه بشدةٍ، وهو يضيف:

- ذلك الذي عرفتموه في زمنك باسم «عادل إبراهيم حماد»، هو تلميذي العبقري.. «هيثم».

وبالفعل كانت مفاجأةً جديدةً..

قويةً.

* * *

الفصل الخامس عشر

اقتحم النقيب «أنور» حجرة العناية الفائقة، التي يرقد فيها «طارق» الفاقد الوعي، وصوَّب مسدَّسَه مباشرةً إلى رأس هذا الأخير، و...

ودوت الرصاصات..

دوت من ركنٍ آخر تمامًا من الحجرة، حيث يجلس «علي»..

لقد بقي في حجرة «طارق»، دون أن يغادرها منذ رقد هذا الأخير على فراشه، وما إن سمع تلك الجلبة في الخارج، حتى تحفَّز بمسدسه..

واقتحم «أنور» الحجرة..

وأطلق «علي» رصاصاته على الفور..

وعلى الرغم من أنه كان يستطيع إطلاقَ النار في مقتَلٍ، إلا أنَّ خبرته في مجال البحث الجنائي، علَّمته ألا يقتل خصمه مباشرةً، حتى لا يفقد مع مقتله، كل ما يمكن استخلاصه منه من معلومات..

لذا، فقد أطلق رصاصاته على ساقيه..

وسقط «أنور» على ركبتيه، وهو يطلق صرخة ألمٍ كبيرةٍ، وساد الهرَج والمرَج في الخارج، وتعالى وَقْعُ أقدامٍ تعدو في كل مكان..

ونهضَ «علي»، وهو ما زال يصوِّب مسدسه إلى «أنور»، قائلاً بكل دهشته:

- أنت؟!

تعرَّف فيه على الفور ذلك النقيب، الذي صاحبه عند فحص سيارة المفتش «جمال»، وأدهشه بشدة أن يُقدِم على فعلٍ كهذا، فاندفع نحوَه هاتفًا في حدةٍ:

- ماذا تفعل؟!

ولكن «أنور» تجاهَلَه تمامًا، وكأنه لا يراه، ورفع رأسه وذراعه؛ ليصوِّب مسدسه مرةً ثانيةً نحو «طارق»..

وأطلقَ «علي» رصاصةً ثانيةً..

رصاصة اخترقت كفَّ «أنور»، وأسقطت منه مسدَّسَه..

وعلى الرغمِ من ساقيه المصابتين، وكفَّه التي تدمي على نحوٍ مخيفٍ، مال «أنور» محاولاً التقاط مسدسه باليد اليسرى، وكأنما لم يعد له من هدفٍ في الحياة سوى قتل «طارق» الفاقد الوعي..

وبكل سرعته، ركل «علي» المسدسَ بعيدًا، ثم لكم «أنور» في فكِّه بكل قوَّتِه، صارخًا:

- ماذا أصابك؟!

احتمل «أنور» اللكمة على نحوٍ عجيبٍ، وحاول أن يزحف مرةً أخرى نحو المسدس البعيد، فاستجمع «علي» كُلَّ قُوَّتَه، وهوى على مؤخرة عنقه بمسدسه..

وفي هذه المرة، انتفض جسَدُ «أنور» في شدةٍ، ثم سقط فاقد الوعي..

وبكل دهشته وحيرته، وقف «علي» يلهث، وهو يغمغم:

- لماذا فعل هذا؟! لماذا؟!

وصل رجال أمن المستشفى في هذه اللحظة، وهالهم ذلك الموقف العجيب، الذي لم يواجهوا مثله قَطُّ في حياتهم، ولكن «علي» استعاد سيطرته على نفسه، وهو يقول، مشيرًا إلى «أنور»:

- هذا الرجل يحتاج إلى إسعافٍ سريعٍ، ولكن احرصوا على تقييده في إحكامٍ؛ فقد أصابه مسٌّ من الجنون.

«جنون؟!»...
هتف بها مدير الأمن مستنكرًا، وهو يقف في حجرة العناية الفائقة، بعد ساعةٍ واحدةٍ، وأضاف في غضبٍ:
- لقد حاولَ قَتْلَ متهمٍ هاربٍ، تمت استعادته على نحوٍ عجيبٍ، وهذا لا يمكن تصنيفه بالجنون، بقدر ما هو خيانة عظمى لوظيفته وواجبه.
قال «علي»، وهو يفرد قامته:
- لم يكن في حالةٍ طبيعيَّةٍ إطلاقًا، عندما فعَلَ هذا.. لقد أعجزَتُهُ عن الحركة تقريبًا، ولكنه ظلَّ مُصِرًا على استعادة مسدسه، وتنفيذ مهمته.
صمت لحظةً، ثم أضاف في توتر:
- ثم إن أحد الأطباء هنا، أكَّد أنه مصابٌ بمشكلةٍ نفسيةٍ، سببت له إزعاجًا كبيرًا، في الآونة الأخيرة.
سأله مدير الأمن في حدةٍ:
- أأنت مستعد لأن تُورِد هذا، في تقريرك الرسميّ؟!
أجابه «علي» في حزمٍ:
- بالتأكيد.
رمقه مدير الأمن بنظرة غاضبة، قبل أن يقول في حِدَّةٍ:
- وماذا عن كُلِّ من حضَرَ الواقعة في المستشفى؟! هل تظن أنهم سيلزمون الصمتَ جميعًا؟!
قال «علي» في شيءٍ من الصرامةِ، لا يتناسب مع رتبته:
- فليقولوا ما يشاءونَ.. هذا ما حدثَ بالفعل.
هتفَ مدير الأمن:
- وماذا عن المسئولين؟! ورجال الصحافة والإعلام؟! هل تظن أن حادثة إطلاق النار داخل مستشفى الشرطة ستمضي معهم في سلامٍ؟!
هزَّ «علي» رأسه نفيًا، وقال:
- كلَّا بالتأكيد، ولكننا سنصدر تصريحًا رسميًا، نشرح فيه الموقف كله.
واصل مدير الأمن حدَّتَه، وهو يقول:
- وهل تتصوَّر أنهم سيصدقونه؟! إنهم سيشكِّكونَ في كل حرفٍ منه، وسيوردون القصص، والتفسيرات، وكل ما يحلو لهم من إعادة توصيف الأمور كالمعتاد.
قال «علي» في حزمٍ:
- ليس أمامنا سوى هذا.
صمت مدير الأمن لحظات، محدِّقًا في وجهه، ثم قال في حدةٍ:
- هذه القضية صارت مصدر أرَقِي وتوتري.. إنني لم أغمض عينيَّ، أو أشعر بالارتياح، منذ بدأت.
غمغم «علي» في ضيقٍ:
- كلنا هذا الرَّجُل.
صمت مدير الأمن لحظات في حنقٍ، ثم لم يلبث أن قال في حدةٍ:
- إنها قضيتك على كل حالٍ.

ثم اندفع يغادر المكان، وكأنما يلقي الأمر كله على كاهل «علي»، الذي شعر بالارتياح لهذا، على الرغم من كل ما حدث..
وفي خُطواتٍ سريعةٍ، اتجه نحو باب الحجرة، وأغلقه، ثم التفت إلى «طارق» الفاقد الوعي، وغمغم في توترٍ:
- أيُّ سِرٍّ تحمله في أعماقك يا هذا؟! أيُّ سر؟!
« لا توجد أيَّةُ أسرارٍ..»
نطق الدكتور «رأفت» العبارة، في زمنٍ آخَر، وهو يواجِهُ المفتش «جمال»، الذي عاد يسأله في حزمٍ:
- لماذا لا تُحدثني في صراحة إذًا؟!
صمت الدكتور «رأفت» لحظاتٍ، ثم قال في أسفٍ:
- تصوَّرت أنك قادرٌ على استيعاب الأمر، على نحوٍ أكثر سرعةً.
شعَرَ «جمال» بالضيق، من المعنى الذي تحويه عبارة الرجل، فقال في توترٍ:
- هل تحاول إقناعي، بالقيام بتلك الرحلة الزمنية؟!
بدا الارتياح على وجه الدكتور «رأفت»، وهو يقول:
- بالضبط.
سرى توتُّرٌ شديدٌ، في جسد «جمال»، وهو يتصوَّر نفسَه مسافرًا عبر الزمن، في أحد أفلام الخيال العلمي، يواجِه مخلوقاتٍ عجيبةً، تملك القدرة على السيطرة على عقول الآخرين، وهزَّ رأسه في قوةٍ، وهو يقول:
- مطلَبُك يتجاوز حدودَ إمكانياتي؛ فحتى لو نجحت في هذا، فكيف سأواجه تلك المخلوقات؟!
أجابه الدكتور «رأفت» في سرعةٍ:
- ليس المطلوب منك أن تواجهها.. فقط ستصل إلى «هيثم»، قبيل حادثة «طارق» مباشرة، وستحمل إليه رسالةً مِنِّي، أشرح له فيها الموقف كله، وسيتولى هو البقيةَ.
قال «جمال» في توتُّرٍ:
- ولكن الواقع أنني سأكونُ موجودًا، في الزمن نَفسِه، فماذا لو التقيت بذاتي مثلاً؟!
أجابه الدكتور «رأفت» في هدوءٍ، وكأنه يناقش أمرًا عاديًا:
- سيفنى كلاكما الآخر؛ لأن المادة الواحدة، لا يُمكِنُها أن تحتلَّ نفس المساحة من الفراغ، في وقتٍ واحدٍ، كما تؤكِّد نظريات السفر عبر الزمن .(14)
حدَّقَ فيه «جمال» مستنكرًا، ولكن الرجل تابع بنفس الهدوء:
- لهذا لا يمكنك البقاء في ذلك الزمن، لأكثر من أربع وعشرين ساعةً فقط.
سأله «جمال» في اهتمامٍ قَلِقٍ:
- وبعدها أعودُ إلى هنا؟!
صمت الدكتور «رأفت»، وهو يتطلَّعُ إليه، فغمغمَ «جمال» في قلقٍ أكثرَ:
- أم ماذا؟!
تنهَّدَ الدكتور «رأفت»، وهو يُجيب:
- بعدها سيفنى جسدك.
كادت عينا «جمال» تجحظان، وهو يحدِّق في ذهولٍ، قبل أن يقول في حِدَّةٍ:
- إذًا أنت تطلب مِنِّي أن أموت؟!

هزَّ الرجل رأسه نفيًا، وأجاب:
- ليس كما تتصوَّر.
قال «جمال» في عصبيةٍ:
- أهناك تصوُّرٌ آخر للموت؟!
أجابه في سرعةٍ:
- بالتأكيد، ما دام الأمر يتعلَّق باللعبة الزمنية.
ثم اعتدل، واستخدم يديه في حماس، وهو يضيف:
- ما سيفنى هو كيانك الحالي؛ لأنه ليس في زمنه الفعلي، ولكن كيانك الآخر، الذي يسير في تسلسله الزمني الصحيح سيبقى، وسيواصل حياته، دون أن يدري حتى ماذا حدث، ولو وجد (هيثم) طريقةً للخلاص، ستتغيَّر الأحداث كلها، عند تلك النقطة، وبهذا لن يتم اتهام «طارق» بقتله، ولن يختفي بالتالى من حجرة الإعدام، ولن تحدث تلك السلسلة من التداعيات، التي أتت بك إلى هنا..
هتف «جمال» في حدةٍ:
- وماذا عن تأثيرِ الفراشة، الذي أرهقتَ عقلي بالحديث عنه؟!
هزَّ الدكتور «رأفت» كتفيه، وقال:
- لا أحد يدري.. هناك آلاف السيناريوهات، التي يمكن وضعها تحت هذا الافتراض.. ربما يتغيَّر شكل العالم عما نعرفه، وربما تختلف بعض أحداث التاريخ..
ثم ابتسم ابتسامةً مريرة، مضيفًا:
- وربما حتى لا نتوصل نحن عندئذٍ إلى اختراع آلة الزمن البشرية.
حاول «جمال» لحظاتٍ، استيعاب هذا، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه في شدةٍ، وهو يقول:
- ولكن لو أنكم لم تخترعوها، فلن تعلموا بوجود قراصنة الزمن هؤلاء، ولن يضطر «هيثم» للعودة إلى زمني، و...
لم يستطع الاستطراد مع تعقيدات الموقف اللانهائية، فاحتقن وجهه بشدةٍ، مما جعل «رأفت» يميلُ نحوَهُ، قائلاً:
- في النهاية، ليس أمامنا سوى هذا الحل.
ارتسم مزيجٌ من الشكِّ والقلق، على وجه «جمال»، فعاد الدكتور «رأفت» يميل نحوَهُ، وهو يقول في حزمٍ:
- قُل لي.. ما الذي أنت مستعِدٌّ لعمله، في سبيل «مصر»؟!
أجابه «جمال» في سرعةٍ مُخلصةٍ:
- أي شيء في الوجود.
سأله الرجل، في حزمٍ أكبر:
- حتى التضحية بحياتك؟!
أجابه «جمال» دون ذَرَّةٍ واحدة من التردُّد:
- بالتأكيد.
مال نحوه الرجل أكثر، وقال:
- ما الذي أنت مستعد لعمله إذًا، في سبيل الأرض كُلِّها؟!
حدَّق «جمال» في وجهه لحظاتٍ، متسع العينين، ثم تراجع في مقعده في بطءٍ، وهو يقول في صوتٍ خافتٍ مستسلمٍ:

- متى يمكننا البدء؟!
تراجع الرجل في مقعده في ارتياحٍ، وهو يجيب:
- فورًا.
وارتجفت كُلُّ ذَرةٍ في كيان «جمال»، كما لم يحدثُ من قبل..
أبدًا.

* * *

الفصل السادس عشر

كُلُّ شيءٍ بدا أشبَهَ بفيلمٍ من أفلام الخيال العلمي..
كل شيء..
تلك الأرقام المجسَّمة، التي تسبح في هواء المكان، كما لو أنه قد تحوَّل كُلُّه إلى شاشةٍ رقميَّةٍ ثلاثيَّةٍ الأبعاد..
وذلك الجهاز الأسطواني الشفاف، الذي يرقد داخله..
والآلات الدقيقة المتعدِّدَة، التي تدور من حوله، كما لو أنها قد قطعت علاقتها نهائيًا بالجاذبية الأرضية وقوانينها..
وفي رقدته، راح «جمال» يدور بعينيه في كل هذا، في توتُّرٍ لم يشعر به من قَبْلُ، وهو يتساءل: هل سيكون فناء جسده مؤلمًا، في حين ناوَلَه الدكتور «رأفت» مكعبًا صغيرًا من الكريستال، وهو يقول:
- هذه التقنية غيرُ موجودةٍ في زمنكم، ولكن «هيثم» يملك التعامل معها، وهي تحوي رسالةً منِّي، بها كل التفاصيل المطلوبة، وكل الأحداث التي تَلِي الزمن الذي ستصل إليه، وهي ستجعل «هيثم» يثق بك، ويثق في أنني قد أرسلتك إليه، وهذه قنينة تحوي عقارَ التنشيط، احتفظ بها جيدًا، حتى تتناولها، فور استعادتك شيئًا من وعيك، وكل ما تبقَّى هو أن تتوصلا إلى اللحظة، التي حدثَ فيها اللقاءُ الأوَّل، بين «طارق بشير»، وتلك الكائنات الزمنية.
العبارةُ الأخيرة جعلت «جمال» يعتصر ذهنه في قوَّةٍ، مُحاوِلاً استرجاع كُلِّ ما قرأهُ في ملف قضية «طارق»، ولكن الدكتور «رأفت» قطعَ تواصل أفكاره، وهو يقول:
- أأنت مستعد؟!
سرت قشعريرة في جسد «جمال»، وهو يقول في توترٍ:
- أعتقد هذا.
منحه الدكتور «رأفت» ابتسامة مشجعة أخيرة، ثم أولاهُ ظهرَهُ، ومسَّ بأنامله بعض تلك الأحرُفِ المجسَّمة في الهواءِ، فصدر صوتٌ خافتٌ من الأسطوانة الشفّافة، ثم بدأ الغطاء العلوي لها ينزلق فوقها، فتضاعف توتُّرُ «جمال»، و...
وفجأةً، بدأ كل شيءٍ..
شيء أشبَهُ بصواعقَ صغيرةٍ، انتشر حول الأسطوانة كلها، وبدا واضحًا عبر غطائها الشفَّافِ، ثم راح جسده هو يرتجُّ في قوَّةٍ جعلته يغلق عينيه في ألمٍ، وعلى الرغم من هذا، بدا له أنه يرى خليطًا من الألوان يتطاير أمامه، قبل أن تصدر تلك الفرقعة، التي شعر معها وكأنه يهوي في فراغٍ لا نهائيَّ..
وبحركةٍ غريزيةٍ، حاولَ أن يتشبَّث بأيِّ شيءٍ حولَه، إلا أن جدران الأسطوانة بدا وكأنها قد تلاشت، وصار جسده منفردًا، في ذلك الفراغ اللانهائي، الذي بدا وكأن سقوطه فيه لا ينتهي..
ثم فجأةً، ارتطم جسدُه بالأرض..
وهدأ كل شيء..
كان يشعر بإرهاقٍ شديدٍ، يشمل كيانه كله، حتى إنه ظلَّ مسترخيًا أرضًا، يغلق عينيه في قوَّةٍ، على الرغم من أشعَّة الشمس، التي تغمر وجهَهُ وجسدَهُ..

وفي صعوبةٍ بالغةٍ، التقط قنينةَ التنشيط من جيبه، وبذل كل ما تبقى له من جهدٍ؛ ليرفعها إلى شفتيه، ثم يجرع محتوياتها دفعةً واحدةً..

ثوانٍ مضت، ثم بدأ النشاط يدُبُّ مرةً أخرى في أطرافِهِ، واستعاد عقلُهُ شيئًا من صفائه، فمال بوجهه، متفاديًا أشعَّةَ الشمس المباشِرَةَ، ونهض جالسًا، ثم فتح عينيه في بطءٍ، يتطلَّع إلى ما حوله...

نعم، إنه عالمه الذي يعرفه، وزمنه الذي اعتاده..

يا لَهُ من شعورٍ مُريحٍ..!

ولكن وفقًا لحسابات الدكتور «رأفت»، المفترض أن يكون الآن فوق سطح مبنى شركة المستقبل لتكنولوجيا المعلومات، في زمنٍ يسبق الأحداث..

ووفقًا لما تراه عيناه، هو على سطحٍ ما بالفعل..

نهض واقفًا، وبحث عن مخرجٍ للسطح، ووجد بابًا صغيرًا، عبره إلى درجات سلَّمٍ طويلةٍ، قادته إلى الطابق العلوي من المكتب..

وفى ذهولٍ، حدَّق فيه حارس الأمن هناك، ووضع يدَهُ على مسدسه في تحفُّزٍ، وهو يسأله في انفعالٍ:

- من أين أتيت يا هذا؟!

أبرز «جمال» هوية الشرطة التي يَحملها، وتجاهل سؤال الحارس تمامًا، وهو يقول في صرامةٍ:

- المفتش «جمال فتحي»، من المباحث الجنائية.. أريد مقابلة السيِّد «عادل إبراهيم» فورًا؛ لأمرٍ هامٍّ وعاجلٍ.

ظلَّ الحارس يحدِّق في وجهه لحظاتٍ بنفس الذهول، ولكنه كتمَ سؤالَهُ في أعماقه، مع مطالعَته الهوية، وغمغمَ في توتُّرٍ:

- مكتب «عادل» بك أسفلنا مباشرة، ولكن...

لم يمنحه «جمال» الفرصة لإكمال عبارته، فقد كان في الواقع أشدَّ توترًا منه، لا يستطيع بَعْدُ استيعاب رحلته الزمنية العجيبة، التي لا يمكنه حتى أن يرويها لأحدٍ.

أو ربما لن يجد أبدًا الوقت لهذا..

عاودَه مرةً أخرى ذلك القلقُ المخيفُ، حول فناءِ جسده المتوقَّعِ، بعد أربعة وعشرينَ ساعةً، وتساءل عما يعنيه الدكتور «رأفت» بكلمة (فناء) هذه؟!

هل سيموت مثلاً؟!

أو يتلاشى؟!

أم يضيع في الفراغ؟!

أرعبته الفكرة بعضَ الشيء، وهو يهبط إلى حيث مكتب «هيثم»، وحاول أن يبعدها عن ذهنه، فتساءل: كيف سيكون موقف مدير الأمن، لو أراد أن يذكر هذا في تقريره الرسمي؟!

حاول أن يبتسم للفكرة، ولكن توتره منعه من هذا، حتى وصل إلى حيث مكتب «هيثم»، واتجه نحو السكرتيرة، التي حدَّقت فيه بنفس النظرة، التي أطلَّت من عيني حارس الطابق العلوي، فتوقف أمامها، وكرَّ عليها نفس ما قاله للحارس، وهو يبرز هويته، التي حدَّقت فيها السكرتيرة أيضًا، ثم رفعت عينيها إليه، متسائلةً في دهشةٍ:

- كيف صعدت إلى هنا مباشرة، دونَ أن يبلغنا مكتب الأمن في المدخل؟!

تجاهل سؤالها، وهو يقول في صرامةٍ:

- قلت إنها مقابلة هامة وعاجلة، ولست مستعدًا للانتظار، فلكل دقيقة ثمنها.
بدت صارمةً أيضًا، وهي تقول:
- «عادل» بك لا يستقبل أحدًا، دون موعدٍ سابقٍ.
مالَ يرتكن على سطح مكتبها بقبضتيه، وتطلَّع إلى عينيها مباشرةً، وهو يقول:
- ماذا لو عدت مع وكيل النيابة، والضبطية القضائية؟!
شحب وجهها على نحوٍ كبيرٍ، وبحَّ صوتها، وهي تغادر مكتبها قائلة:
- سأبلِّغه.
غابت داخل المكتب لنصف دقيقةٍ، بدت للمفتش «جمال» أشبهَ بدهرٍ كاملٍ، وهو يبذل جهده للسيطرة على أعصابه، والحفاظ على مظهره الصارم، ثم لم تلبث أن خرجت، وأمسكت بالباب المفتوح، قائلةً في توتُّرٍ مُستسلمٍ:
- تفضَّل.
دلف «جمال» إلى المكتب، الذي أغلقت السكرتيرة بابَه خلفه، وتطلَّع لحظةً إلى «هيثم»، الذي يبدو شابًا وسيمًا، موفورَ الصحة، وهو يقف خلف مكتبه، ويمد يده إليه، قائلاً في هدوءٍ:
- بم يُمكن أن أخدمك يا سيادة المفتش؟!
صافحَهُ «جمال»، وجلس على المقعد المقابل لمكتبه، وهو يجيب:
- بالكثير..
تطلَّع إليه «هيثم» بعينين هادئتين متفحصتين، قبل أن يميل نحوَه، قائلاً:
- من المفترض هنا، عندما يتلقى شخصًا زيارةً من مفتش مباحث، أن يصاب بشيءٍ من التوتر، ولكنني عندما صافحتك، لاحظت أنك أنت المصاب بالتوتر يا سيادة المفتش، فما سببُ هذا؟!
أدهش السؤال «جمال» بحقٍّ، وغمغم في أعماقِه بأنَّ الشاب عبقريٌّ بالفعل، ولكنه سيطرَ على أعصابه، وقال:
- إنني مُوفَد إليك، من شخصٍ تعرفه.
تراجع الشاب في مقعده في هدوءٍ، مكرِّرًا:
- شخص أعرفه؟!
دفع «جمال» أكبرَ قدرٍ من الحزم إلى صوته، وهو يقول:
- الدكتور «رأفت».. «رأفت فهمي»..
كان يتوقع أن يظهر أثر المفاجأة أو الصدمة، على وجه الشاب، إلا أنه ظلَّ هادئًا على نحوٍ عجيبٍ، وهو يقول، وقد تسللت ابتسامةٌ إلى ركن شفتيه:
- «رأفت فهمي»؟! هل التقيت به في مؤتمرٍ ما، أم إنه أحدُ أصحاب الشركات، التي أتعامل معها؟!

التقط «جمال» نفسًا عميقًا، أخرجه مع كلماته، وهو يقول:
- بل هو أستاذك الشخصي يا.. يا سيِّد «هيثم».
مرةً أخرى، لم يبدُ أيُّ تأثيرٍ على ملامح الشاب، حتى إن «جمال» بدأ يشعر بالقلق، من أنه قد أخطأ الشخص المطلوب، قبل أن يميل الشاب إلى الأمام، قائلاً بنفس الهدوء:
- يبدو أنك قد أخطأت هدفك يا سيادة المفتش.. اسمي «عادل إبراهيم».. الدكتور «عادل إبراهيم»، وليس «هيثم».

لم يَدرِ «جمال» كيف يمكن للشاب السيطرة على انفعالاته، على هذا النحو المدهش، ولم يجد أمامه ما يفعله، سوى أن أخرج مكعَّبَ الكريستال الصغير من جيبه، ووضعه أمامه على سطح المكتب، دون أن يضيف حرفًا واحدًا..
ولثوانٍ، ظلَّ الشاب يتطلَّع إلى المكعب بنظرةٍ خاويةٍ، قبل أن يعتدل في مجلسه، ويمد سبَّابته إليه، و...
ويلمس سطحه..
وعندئذٍ، انتفض جسدُ «جمال» في شدةٍ..
فما إن لمس «هيثم» المكعب بطرف سبَّابته، حتى تألَّق كله بضوءٍ أزرق جميلٍ، ثم انبعث من سطحه نافورة من الضوء، سبحت معها تلك الأحرف والأرقام ثلاثية الأبعاد، في جو الحجرة، في حين أغلق «هيثم» عينيه في شدةٍ، وراح جسده يرتجف على نحوٍ ملحوظٍ، وسبَّابته تبدو وكأنها قد التصقت بالمكعب، وتلك الأحرف والأرقام تتخذ مسارًا أشبَه بدوَّامةٍ، تدور حول رأس الشاب، الذي يرتجف..
يرتجف..
ويرتجف..
وارتجافته تزداد قوةً وسُرعةً في كلِّ ثانية، حتى أطلق شهقة مفاجئةً، انتفض لها جسد «جمال» مرةً أخرى، واتسعت معها عيناه، وخبا بعدها ضوءُ المكعب، الذي سحبَ (هيثم) سبابته منه في حركةٍ حادَّةٍ، ثم تراجع في مقعده، وهو يلهث في شدةٍ، كمن بذلَ جهدًا جبارًا..
واختفت كل الأحرف والأرقام والأبعاد، من جو الحجرة دفعةً واحدةً، ولكن «جمال» ظلَّ جامدًا في مقعده، يحدِّق في «هيثم»، ويتساءل عمَّا أصابه..
ولوهلةٍ، راوده الشك في كل ما حدثَ..
أكانت هذه بالفعل وسيلة اتصال، ورسالة تنبيه، أم إنه، دون أن يدري، حمل عبر الزمن، سلاح تدمير الشاب؟!
لم تستغرق تساؤلاته لحظاتٍ، فتح بعدها «هيثم» عينيه، مغمغمًا في إرهاق:
- معذرة.
سأله «جمال» في خفوتٍ:
- أأنت بخيرٍ؟!
أومأ الشاب برأسِه إيجابًا، وقال وهو يبذلُ جهدًا لإستعادة حيويته:
- نعم.. اطمئن.. كان من الضروري أن نتأكَّد من أنهم لن يحصلوا على أيِّ شيءٍ منِّي، لو أنهم نجحوا في الوصول إليَّ، لذا فقد مَحَونا مؤقتًا شخصية «هيثم»، واحتفظنا بها هنا.
قالها، وهو يشير إلى المكعَّب الكريستال، فهتف «جمال» مندهشًا:
- هنا؟!
ابتسم «هيثم»، وهو يعتدلُ على مقعده، قائلاً:
- لا تحاول الفهم أيها المفتش، فهذا يتجاوز إدراكك بكثيرٍ.
قال «جمال» في ضيقٍ:
- كل ما مررت به، في الآونة الأخيرة، يتجاوز إدراكي بكثيرٍ، وعلى الرغم من هذا، فقد أمكنني استيعاب الكثير منه.
عاد «هيثم» يبتسم، مغمغمًا:

- بالتأكيد.
لم ترق تلك الابتسامة الثانية للمفتش «جمال»، فسأله في عصبيةٍ:
- والآن، هل تعتقد أن ما قمت به سيذهب سدى.
أجابه في حزمٍ:
- مطلَقًا.
ثم استطردَ في اهتمامٍ:
- لقد درست الأمر من كل أوجهه، ووجدت أن مشكلتنا الوحيدة، هي أننا نجهل متى وأين سيتجسَّد هؤلاء القراصنة الزمنيون، فلو أمكننا تحديد موعد بعينه، أمكننا القضاء عليهم نهائيًا، في المكان والزمان، بحيث ينجو الكون كله من شرورهم.
قال «جمال» في حماسٍ:
- لقد تجسَّدوا بشمسهم الساطعة في مكتبي..
ثم استدرك في ارتباكٍ:
- أعني أنهم سيفعلون مع شبيهي.. أو مع نفسي الأخرى.. لست أدري في الواقع كيف أصف هذا..!
صمَتَ «هيثم» لحظةً، ثم قال:
- وفقًا للمعلومات، التي أمدَّني بها هذا المكعب، سنكون قد خسرنا الكثير إذا ما استخدمنا هذه النقطة الزمنية؛ إذ سيكونون عندئذٍ قد سيطروا على عقل «طارق» بالفعل، وتم اتهامه ظُلمًا بقتلي، وسنضطر لإنقاذه من حبل المشنقة مرةً أخرى، وهذا سيزيد الأمور تعقيدًا.
وهزَّ رأسه، مضيفًا في أسفٍ:
- فالرَّجُل لا يستحق هذا المصير في الواقع.
تراجع «جمال» في مقعده يائسًا، وهو يغمغم:
- كيف يُمكِن أن نظفر بهم إذًا؟!
تنهَّدَ «هيثم» قائلاً:
- لدينا الوسيلة، ولكننا نفتقر إلى التوقيت.
أغلق «جمال» عينيه، وحاول أن يسترخي على مقعده، وهو يسترجع الأمر كله؛ بحثًا عن الحل..
لقد واجه من قبل عشرات الجرائم، التي قيل عنها أنها غامضةٌ معقَّدةٌ، واكتسب شهرته في عالم البحث الجنائي، من كشف غموضها وحلِّ تعقيداتها..
ولكنه لم يواجه أبدًا شيئًا كهذا..!
لم يواجه موقفًا، يبدو أشبه بأفلام الخيال العلمي، مع لمسةٍ من الرُّعب، وغموض مستقبلي، وتعقيدات علمية لا حصر لها..
ولكن، لماذا لا يحاول؟!
اعتصر ذهنه أكثر، مسترجعًا كل موقف..
وكل ورقة..
وكل كلمة..
وكل حرف..
استرجع أحداث الاختفاء الغامض..
وقضية (طارق بشير)..
و..

وفجأة، توقف ذهنه عند نقطة بعينها..
عبارة، ردَّدَها «طارق»، في التحقيقات الأوَّلية، ولم يلتفت إليه أحدٌ..
عبارة، ربما يكون فيها حل الأمر كله..
وفي انفعالٍ، اعتدل في مقعده، وفتح عينيه، هاتفًا:
- إنني أعرف اللحظة المناسبة.
والتفت إليه «هيثم»، بكل اهتمامِ الدنيا، ثم خفق قلبه في قوة، وهو يستمع إليه..
فالحل فعلاً كان يكمن في هذه النقطة..
بالتأكيد.

* * *

الفصل السابع عشر

الساعات تمضي بسرعةٍ، أكبر مما تصوَّر..
دارت هذه الفكرة في رأس «جمال»، وهو يجلس في قبوٍ خفيٍّ، أسفل فيلا «هيثم» في «المقطم»، يراقب هذا الأخير، الذي انهمك في إعدادِ وتجهيز أسطوانةٍ شفافةٍ، تُشبِه تمامًا تلك التي عادت به إلى ما قبل زمنه..
كانت عقارب ساعته تشير إلى أنه لم يتبقَّ أمامه سوى ساعاتٍ ثلاث، قبل أن يفنى جسده تمامًا..
ولقد استغرق إعدادُ تلك الأسطوانة وقتًا طويلاً، بالإمكانيات المتاحة في زمنه..
كان «هيثم» يؤدي صلاته، فراقبَه «جمال» حتى انتهى، ثم سأله في قلقٍ:
- أأنت واثق من أنها ستعمل؟!
أومأ «هيثم» برأسه إيجابًا، وقال:
- نعم.. ليس لدي شكٍّ في هذا.. لقد أعددت كل شيء، بحيث تنتقل إلى تمام منتصف الليل، وهو نفس التوقيت، الذي أكَّدَ «طارق» أكثر من مرَّةٍ، أن الشمس قد سطعت فيه أمامه، وأنه قد فقدَ بعدَها ما يقرُب من ساعةٍ من عمره، دون أن يدري كيف..
قال «جمال» في أسفٍ:
- روايته لم تكن منطقيةً حينذاكٍ، وتصوَّرَ الكل أنه يُردِّدُها للتظاهر بالجنونِ حتى يفلِت من العقاب.
ابتسم «هيثم» ابتسامةً باهتةً، وهو يغمغم:
- من حُسنِ الحظِّ أنه ردَّدَها .
راقبه «جمال» بضعَ لحظاتٍ أخرى، وهو يُعِدُّ أجهزته، ثم سألَهُ في اهتمامٍ:
- وكيف تتصوَّر ما سيحدث؟!
أجابه «هيثم» دون أن يلتفت إليه:
- عندما تعمل آلتي، ستنقلني إلى نفس لحظة تجسُّد آلتهم، وسيحدث اختراقان زمنيان في آنٍ واحدٍ، مما سيُحدِث خللاً زمنيًا مكانيًا عنيفًا.
سأله «جمال» في قلقٍ:
- وإلى ماذا سيؤدي هذا؟!
صمتَ «هيثم» لحظاتٍ، قبلَ أن يجيب في حزمٍ:
- سيفنى كلانا من الوجود.
اتسعت عينا «جمال»، وهو يقول:
- أنت وهمٌ؟!
أومأ «هيثم» برأسه إيجابًا، وهو يغمغم:
- هذه هي الوسيلة الوحيدة للقضاء عليهم نهائيًا.
حدَّقَ فيه «جمال» لحظاتٍ في دهشةٍ، ثم قال في خفوت:
- ولكنك تنتمي فعليًا إلى المستقبل، مما يعني أن الحاضر الحالي هو محطتك الأخيرة، فلو فنيت، فسيعني هذا أنك ستفنى نهائيًا.
شدَّ «هيثم» قامته، وجذبَ ذراعًا صغيرًا في إحدى أجهزته، وهو يقول:
- ليس أكثَرَ شرفًا من أن يفنى المرء في سبيل عالمه.
غمغمَ:

- دون حتى أن يدري ذلك العالم بتضحيتك من أجله؟!
هزَّ «هيثم» رأسه، وهو يجيب في حزمٍ:
- ليس هذا هو المهم.
تطلَّع إليه «جمال» في انبهارٍ شديدٍ، ودارت العبارة ألفَ مرَّةٍ في رأسه..
ليس أكثر شرفًا من أن يفنى المرء في سبيل عالمه..
سأله في بطءٍ:
- وكيف ستُطلِق آلتك الزمنية؟!
أجابه «هيثم»:
- لقد أعددتُ كلَّ شيءٍ.. سيبقى فقط أن أضغط هذا الزِّر الأحمر، ثم ستكون لدي بعدها عشر ثوانٍ، لأرقد داخل الآلة، فتنطلق إلى اللحظة المنشودة.
غمغم «جمال»:
- بهذه البساطة..
أومأ «هيثم» برأسه إيجابًا، فسأله «جمال» مرةً ثانيةً:
- ولكننا لا نعلم بالتحديد أين سيتجسَّدونَ.. ماذا لو تجسَّدت أنت في اللحظة نفسها، ولكن بعيدًا عنهم.
هزَّ رأسه، قائلاً:
- لن يصنع هذا فارقًا.. المهم أن يتم التجسُّد في محيط عشرة كيلو مترات، وفي نفس اللحظة.
صمت «جمال» يراقبه بضعَ لحظاتٍ، وألقى نظرةً أخرى على ساعته، وهو ينهض من مقعده، ويتجه نحوه، قائلاً:
- أليس من الخسارة أن يفقد المستقبل عبقريًا مثلك؟!
أجابه «هيثم» في حزمٍ، وهو يتجه نحو ذلك الزر الأحمر:
- المهم أن يبقى مستقبل عالمي، وينجب عباقرة آخرون.
وقفَ «جمال» خلفه مباشرةً، وهو يقول:
- إنني أؤمن تمامًا بما قلته يا فتى.. ليس أكثر شرفًا، من أن يفنى الإنسان، في سبيل عالمه.
ثم تحرَّك فجأةً، وهوى على مؤخِّرة الشاب بلكمةٍ كالقنبلة، اتسعت معها عينا «هيثم»، في ألمٍ وذهولٍ، وحاول أن يتماسك، وهو يلتفت إليه في صعوبةٍ، فأضاف «جمال» بكل الحزم:
- فما بالك بمن سيفنى، في كل الأحوال.
ثم كال له لكمةً ثانيةً في فكِّه، سقط إثرها الشاب فاقد الوعي، بين أجهزته شديدة التعقيد..
وهنا، اعتدل «جمال»، والتقط نفسًا عميقًا، وهو يغمغم:
- أتعشَّم أن تواصِلَ نفسي الأخرى نجاحاتها، حتى تستحق ذلك التاريخ المشرِّف في المستقبل .
التقط نفسًا آخرَ عميقًا، ثم ضغط ذلك الزر الأحمر، واندفع يرقد داخل تلك الأسطوانة الشفافة، التي انزلق غلافها العلوي فوقها، وراحت تلك الشرارات الصغيرة تغمرها..
وداخلها أغلق «جمال» عينيه في قوة..
لقد تخيَّل نهايات عديدة لحياته، منذ بَدءِ عمله، في مجال البحث الجنائي..
تخيَّل رصاصةَ انتقامٍ..
أو حادثًا مُدبَّرًا..
أو حتى ميتةً طبيعيةً..

ولكنه لم يتخيَّل مثلَ هذه النهاية..
أبدًا..
شعر فجأةً بجسده يسقط، في ذلك الفراغ اللانهائي، فأغلق عينيه ثانية، إلا أنه لم يلبث أن شعر بفضولٍ شديدٍ، لمعرفة كيف ستكون النهاية..!
وكيف ستبدو..!
ومع فضوله، فتح عينيه..
وكان المشهد عجيبًا..
كان وكأنه يسقط في دوَّامةٍ عجيبةٍ، عبر مَمرٍّ طويلٍ، أشبه بقلب دودةٍ عملاقةٍ، تتألق جدرانها الداخلية بكل لونٍ رآه في حياته..
وكانت الرحلة تبدو بلا نهايةٍ..
ثم بدأت تلك الأشكال العجيبة في الظهور..
أجسامٌ شِبهُ بشريَّةٍ، شِبْهُ شفافةٍ، ذات رءوسٍ كبيرةٍ، وعيون شديدة الاتساع، تحدِّق كلُّها فيه بنظرة عجيبةٍ..
نظرة تجمع ما بين الدهشة والذعر وفزع المفاجأة، لو أننا قِسْنَا هذا بمقاييس عالمنا الذي نعرفه..
وكانت كل تلك المخلوقات، داخِل ما بدا أشبه بفقاعة شفافة هائلة، تحوي داخلها غابةً من الكريستال النقيِّ..
والعجيب أن هذا المشهد لم يفزعه..
لقد رأى فزعَهُم الشديد، وتحركاتهم المضطربة، فغمغمَ:
- إنها النهاية أيُّها الأوغادُ.
ومع ختام عبَارَتِهِ، بدا له أنه يسمع صراخهم الرهيب، ثم غمره ضوءٌ شديدُ السطوع، وشعر بكيانه كله يتفكَّكُ..
ثم انتهى كلُّ شيءٍ..
تمامًا.

* * *

الفصل الأخير

انحنى الرائد «سامي»، يعيد فحص تلك الجثة مقطوعة الأوصال، قبل أن يغمغم في أسفٍ:
- الجرائم تزداد بشاعة في كل يومٍ.
أجابه المفتش «جمال»، وهو يدير رأسه في مسرح الجريمة، مُحاوِلاً أن يستشفَّ منه ملابسات الواقعة:
- من الواضح أنها جريمةٌ انتقاميةٌ، وأن الجاني هو أحد معارف القتيل، وأتصوَّر أنها ترتبط بلمحةٍ نسائيَّةٍ؛ فلو لاحظت، فستجد ثلاثة أكوابٍ هنا، بها بقايا عصير فواكه، أحدها يحمل آثارَ طلاءِ شفاةٍ على طرفه، وباب المنزل سليم، يوحي بعدم الاقتحام.
اعتدل «سامي»، وهو يقولُ في إعجاب:
- رؤيتك لمسرح الجريمة تُبهرني دومًا يا سيادة المفتش.
تجاهَلَ «جمال» عبارته، وهو يتابِعُ:
- وآثار الدماء تُشير إلى أنَّ الجريمة قد تمت في مكانٍ آخر، هو حجرةُ النوم على الأرجح، والقتيل ما زال يحمل حافِظَتَه المتخمة بالنقودِ، ولا يوجد أثاثٌ محطَّمٌ حولنا.. ماذا تستنتج من هذا؟!
أجابه «سامي» في سرعةٍ:
- إن القتلَ قد تم فجأةً، بتخطيط مسبق، والقتيل لم يقاوم؛ لأنه لم يتوقَّع ما حدثَ.
هزَّ «جمال» رأسَهُ في هدوءٍ، وقال:
- هل لاحظت أن الهاتف المحمول للقتيل قد اختفى، على الرغمِ من أنَّ حافظته ظلت موجودةً.
تساءلَ «سامي» في تردُّدٍ:
- وما الذي يُمكِن أن يعنيه هذا؟!
أشارَ «جمال» بيدِه، وهو يُجيبُ في بساطةٍ:
- الهاتف كان يحوي اتصالاتٍ أو رسائلَ، لم يجد القاتل فرصةً لمحوها، وخشيَ أن تشير إليه، فاستولى على الهاتف كلِّه.
رفع «سامي» حاجبيه لحظةً، ثم خفضهما، وهو يبتسم، قائلاً:
- هل نقومُ بتتبُّع الهاتف المحمول؟!
أجابه «جمال» في حزمٍ:
- قم بهذا فورًا، وابحثْ عن كلِّ معارف وأصدقاء وزملاء القتيل، وأخرِج من بينهم ضعاف البنية، فالقاتل الذي مزَّق الأوصال على هذا النحو، يتمتع ببنية قوية حتمًا.
اتسعت ابتسامة «سامي»، وهو يقول:
- الواقع يا سيادة المفتش أن العمل معك هو خبرةٌ كبيرةٌ، فأنت تجعل كل الجرائم تبدو عاديةً، قابلة للحل.
التقط «جمال» نفسًا عميقًا، وقال:
- إنها كذلك.
ثم أضاف، وهو يبتعِدُ:
- في عملنا هذا، لا تتوقع أن تجد إلا الجرائم المعتادة، أما تلك الجرائم الغامضة العجيبة، فاتركها لخيال الروائيين، وكُتَّاب السيناريو في السينما.
غمغم «سامي» في إعجابٍ:

- صدقت.
في نفس اللحظة، التي نطق فيها كلمته، كان «طارق بشير» يلتقط زجاجةَ مياهٍ غازيةٍ مثلَّجةٍ، من صندوق بدائيٍّ، يحوي قِطعًا كبيرة من الثلج، ثم يتجه إلى شرفة منزله الصغير الجديد، في تلك المدينة الحديثة، وجلس أمام حديقته التي يعشق الاهتمام بها، مستمتعًا بالهواء المنعش، وأخذ يحتسي جرعات المياه الغازية في بطءٍ، ويتأمل النجوم، التي يندر أو يستحيل أن ترصدها في المدن الكبيرة..
كان يعشق ذلك المنزل على الرغم من كونِه في بقعةٍ شِبْه منعزلة، من تلك المدينة الجديدة، التي لم تعتمر بالسكان بَعْدُ، وكان يشعر بارتياحٍ شديدٍ، عندما يقضي فيه يوميَّ إجازته الأسبوعية، بعد العمل الشاق والمستمر، طوال الأيام الخمسة الأخرى المرهِقَة..
كان مبعثُ ارتياحه، إلى جانب الهدوء الشديد، هو بُعده عن كل وسائل التكنولوجيا الحديثة، خلال يوميِّ الإجازة..
وهذا ما حرِصَ عليه تمامًا..
لم يضف إلى منزل المدينة الجديدة جهاز تلفاز، أو هاتفًا، أو شبكة إنترنت.. أو حتى مُبرِّدَ مياهٍ..
شعوره بالارتياح كان يكتمل وهو يحيا حياةً طبيعيةً، بدائيةً، تعيده إلى أحضان الطبيعة الأم، بكل بساطتها وعفويتها..
أغلق عينيه في استمتاعٍ، وهو يستنشق هواء الليل الرطب، و..
وفجأةً، سمع تلك الفرقعةً..
فرقعة خافتة مكتومة، انبعثت بعدها رائحة عجيبة في الهواء، أشبه برائحة أسلاك كهربية تحترق، ففتح عينيه في سرعة، ولمح لوهلة ذلك الضوء، الذي انبعث لجزءٍ من الثانية، ثم تلاشى تمامًا؛ ليعود الهدوء إلى المكان مرةً أخرى..
وفي دهشةٍ، رفع عينيه، مُحاوِلاً أن يستشفَّ ما حدثَ، ولكن كل شيء من حوله كان شديد الهدوء، وتلك الرائحة كانت تتلاشى في سرعةٍ، مع حركة الهواء، فغمغمَ، وهو يعود للاسترخاءِ على مقعده:
- سأطلب أحد الفنيين غدًا لفحص كابلات الكهرباء.
ومطَّ شفتيه، وهو يرتشفُ رشفةً ثانيةً، مُكمِلاً:
- إنهم لا يصنعون أيَّ شيءٍ جيدٍ هذه الأيام.
قالها، ثم استرخى أكثر في مقعدِه، وعاد يستنشق هواء الليل المنعش..
فقد كانت ليلةً جميلةً، لن يسمح لأيِّ شيءٍ بإفسادها..
أي شيء..
على الإطلاقِ.
* * *
تمت بحمد الله
القاهرة في 17/9/2011م

Notes

[←1]

السبب الرئيسي للوفاة، في حالات الشنق هو انفصال فقرات العنق، مع الحبل الشوكي، نتيجة السقوط المباغت، مع تعليق العنق.

[←2]

) (هاري هوديني) – (24 مارس 1874- 31 أكتوبر 1926 م): ساحر وممثل ومخرج أمريكي، من أصل هنجاري، اكتسب شهرةً عالميةً؛ بسبب قدرته المدهشة على التخلص من القيود، مهما بلغ تعقيدها أو إحكامها، وبقدرته المذهلة، على التحكُّم في مرونة جسده وقدراته.

[←3]

) (آرثر كونان دويل): (22 مايو 1859- 7 يوليو 1930 م): طبيب اسكتلندي مبتكِر شخصية (شيرلوك هولمز)، التي استوحاها تأثرًا بأستاذه (جوزيف بل) الذي كان يتمتع بقدرات غير عادية على الاستنتاج.. له مؤلفات مدهشة في أدب الخيال العلمي، وحصل على لقب (سير)، من ملكة بريطانيا.

[←4]



[←5]

حقيقة رياضية أساسية

[←6]

) (جول فيرن): (1828-1905م): روائي فرنسي، يعد أبو الخيال العلمي، مع رواياته المدهشة، التي حملت من التنبؤات العلمية، ما بدا وكأنه خيال في زمنه، من أشهر رواياته (رحلة إلى مركز الأرض) 1864م، و(من الأرض إلى القمر) 1865م، و(عشرون ألف فرسخ تحت الماء) 1870م، و(80 يومًا حول العالم) 1873 م

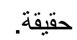
[←7]

حقيقة .

[←8]

(هربرت جورج ويلز): (1866-1946م): أديبٌ وصحفي وروائي إنجليزي، درس العلم بضع سنوات، ثم بدأ في كتابة روايات عن الخيال العلمي، من مُنطلَق فلسفي إصلاحي، مثل (آلة الزمن) 1895 م، و(الرجل الخفي) 1897م، و(حرب العوالم) 1898 م.

[←9]



حقيقة.

[←10]

(روبين هود) شخصية فلكورية إنجليزية، تمثل فارسًا شجاعًا، لديه مهارة مدهشة، في استخدام القوس والسهم، يقاتل الأثرياء والحكماء دومًا من أجل الفقراء والمظلومين.

[←11]

نظرية علمية حقيقية.

[←12]

حقيقة

[←13]

حقيقة

[←14]

حقيقة